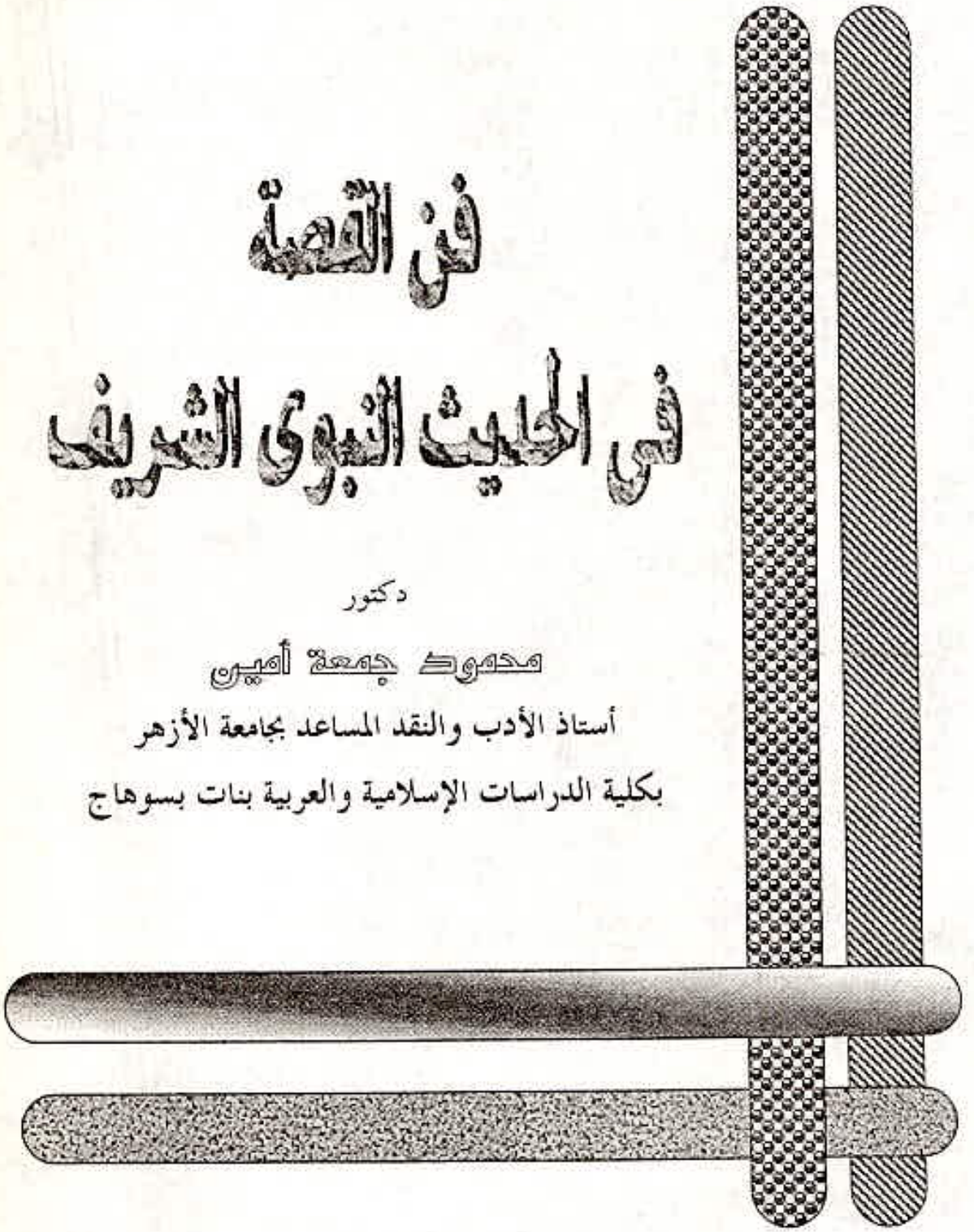

فن القصة
في الحديث النبوي الشريف

دكتور

محمود جمعة أمين

أستاذ الأدب والنقد المساعد بجامعة الأزهر

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بسوهاج

فن القصة في الحديث النبـــوي الشـــريف

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و الســـلام علـــى أشـــرف المرسلين سيدنا محمد و على آله و أصحابـــه أجمعيـــن و بعـــد

فإن الدارس للأدب فـــي عصـــر صـــدر الإســـلام يـــري أن القصة في الأدب النبوي مظهر كبـــير لـــبروز الجـــانب القصصـــي في هذا العصر لما تحـــمله تلـــك القصـــة فـــي بنائهـــا مـــن نسيـــج فني و عناصر قصصية تؤكد للدارســـين لأي مـــدي كـــان العنصر القصصـــى متغلغـــلاً فـــي الجـــو العربـــي القديـــم و فـــي وجدان الناس الذين يتلقون تلـــك القصـــص و يستجيـــبون لـــها و يقبلون عليها تذوقاً و تأثراً و القصـــة فـــي الأدب النبـــوي بمـــا تتضمـــنه من خصائـــص فنيـــة فـــي قيـــمتها -التعبـــيرية و الشعورية – تشجع على دراستها لتجليـــة مـــا تنطـــوي عليـــه نصوصهـــا من الجوانـــب القصصـــية بشـــكل دقيـــق يتنـــاول أهدافها و سماتها الفنية ؛ و لعـــل هـــذا البحـــث محاولـــة لإبـــراز جانب من جوانب البيـــان النبـــوي متمثـــلاً فـــي القصـــة النبويـــة بوصفها جنساً من الأجناس الأدبية التـــي تمثـــل جـــانب العظمـــة

في بيان النبي محمد صلي الله عليه و سلم .هـــذا و قــد تضمــن البحث فصلين رئيســـيين :-

الفصـــل الأول جـــاء بعنـــوان : دراســـة تاريخيـــة للقصـــة العربية بوجه عام .و تتحدث عـــن :

١- أصالة القصـــة العربيـــة و أدلـــة أصالتـــها بوصفـــها مصدرا رئيساً للقصة النبويـــة .

٢- القصـــة القرآنيـــة بوصفـــها مثـــلاً احتذتـــه القصـــة النبوية و عاملاً من عوامل نموهـــا

الفصل الثاني : القصـــة فـــي الأدب النبـــوي . و يشـــتمل على ما يـــأتي :

البنية الأساسية للقصة النبوية وتنتظم العنـــاصر الآتيـــة

أ تمـــهيد

ب-البدايـــة

ج - الوســـط

د - النهايـــة

هـ - نماذج تطبيقية توضح هـــذه العنـــاصر .

٢-أهداف القصة النبويـــة

٣-نماذج من القصص النبـــوى

٤-السمـــات الفنيـــة للقصـــة النبـــــوية ، و قـــد اختـــرت من تلك الســـمات :

أ -انتقاء الألفاظ ذات الدلالـــة .

ب- تنوع الأسلوب بين الحـــوار و الســـرد .

ج- الصورة الفنية للقصـــة النبويـــة .

و الله أسأله التوفيق إنه نعم المولي و نعـــم النصـــير ،،،،

القاهرة في يوم الخميس ٣ من رمضـــان ســـنة ١٤١٨ هـــ

الموافق الأول من ينـــاير ســـنة ١٩٩٨ م

دكتور /محمود جمعـــة أميـــن

أستاذ الأدب و النقد المساعد بجامعـــة الأزهـــر

الفصل الأول

" دراسة تاريخية للقصة العربية بوجه عام "

في البداية أود أن أذكر أن القصـــة فـــي شـــكلها الحديـــث آخر الأجناس الأدبية ظهوراً غير أنـــها فـــي الوقـــت نفســـه مـــن أعرق ألـــوان الأدب تاريخيـــاً حيـــث جـــاءت اســـتجابة طبعيـــة لرغبة الإنسان منذ نشـــأته .

فمنذ أن جاء الإنسان إلـــى الحيـــاة كـــان عليـــه أن يســـعى طلباً للعيش ، فهو ينتشر في الأرض لاجتنـــاء الثمـــر و الاشـــتداد في طلب الصيد جلباً للقـــوت .

و ربمـــا صار في سعيه هذا مـــن الطلـــب إلـــى الهـــرب و من الهجـــوم إلى الدفاع فإما نصره و نجـــاة و إمـــا هزيمـــه و هلاك، و إنه فـــي صراعـــه ذاك -طلبـــاً أو هربـــاً – لتختلـــف عليه ألوان مـــن الأحاســـيس ، و تتـــراءى لـــه ضـــروب مـــن الصور ، بعضها حق واقع و البعض الآخر مـــن صنـــع الفـــزع و تخيل الأوهام . فإذا كان لقاء العودة مـــن رحلـــة الصيـــد بعيـــداً عن شواغل الحياة و العيش و كانت ثمـــة جلســـة مطمئنـــة فـــي هدأة آمنة حول نـــار موقـــدة ،تفتحـــت أبـــواب الكـــلام و تـــهيأت

الآذان للاستماع ، و يروح كل يـــروي أحـــداث نـــهاره الكـــادح و يصف ما كان فيه ؛ و قـــد تقبل عليـــه الدنيـــا فيعيـــش منعمـــا في خيراتها ، فارغـــا مـــن همومـــها و أثقالـــها ،فيمـــلأ فراغـــه بسمر تلعب فيه الحكاية دوراً ملحوظـــاً . خرافـــة تمثـــل خـــوارق الطبيعة أو مجوناً يدغـــدغ عواطـــف الســـمع ، أو ســـخرية تثـــير الضحك أو مركبا للوعـــظ و التربيـــة. (١)

و هكذا نشأت القصة منذ أخذت الحيـــاة تـــدب علـــى وجـــه الأرض و سعى فيـــها الإنســـان ســـعيها ، ضاربـــا فـــي الأرض ، مبتغيا من فضـــل الله .

١-أصالـة القصـة العربيـة

للقصة في الأدب العربي جـــذور عميقـــة ، و عمـــد قويـــة راسخة في قواعد ثابتة بنيت عليـــها . فقـــد عـــرف العـــرب فـــن القصة منـــذ أقـــدم العصـــور ، و إن تراثـــهم الحـــافل بالأشـــكال القصصية المختلفـــة ، التي تـــدل علـــى فطـــرة تنشـــئ القصـــة و تتذوقها ، فهناك قصص الأمثال التـــي تصـــور جوانـــب الحيـــاة في الجاهلية من قبيل ما يوجـــد فـــي كتـــاب "جمـــهرة الأمثـــال " لأبي هلال العسكري المتوفـــى ســـنة ٣٩٥هـــ ، و ممـــا جمعـــه

(١) أنظر " القصة القصيرة " ص ٩ د/طاهر مكي ، دار المعارف ط: ١٩٩٢ م .

الميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ والزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ . وهناك الأسمار و الأساطير و الخرافات التي تتعدد ينابيعها بين عربية و فارسية و هندية ، مما احتشدت به كتب السير و التاريخ مثل "كتاب الوزراء و الكتاب " للجهشياري و "المحاسن و المساوئ " للبيهقي ، و غيرهما لاسيما كتاب الأغاني للأصفهاني ، وما شابهه من كتب الأدب .

والدارس لتاريخ الأدب العربي في أقدم عصوره يجد أن العنصر القصصي في هذا الأدب من أبرز الجوانب الحيوية فيه . (١)

و قد شهد لذلك بعض المستشرقين -في آرائهم المنصفة – من مثل "كارل بروكلمان " الذي يقول في حديثه عن أولية النثر عند العرب : " لم يكن الشاعر وحده هو الذي تهفو إليه الأعين عند عرب الجاهلية ، بل كان القاص يقوم أيضاً مقاما هاماً إلى جانب الشاعر في سمر الليل بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة ، و في مجالس أهل القرى و الحضر " .

---

(١) أنظر " القصص في أدب العرب ما ضيه وحاضره " لمحمود تيمور ص ٢٤ طبع الجامعة العربية سنة ١٩٥٨م .

و يتابع "بروكلمان " حديثه فيقول " و ليست هناك – بطبيعة الحال – تسجيلات معاصرة لهذه الأقاصيص و المسامرات ، ولكن تقيدات اللغويين و الأدباء تعكس لنا روحها و طبيعتها بأمانة و دقة ، لا سيما كتاب الأغاني و ما شابهه من كتب الأدب . و كان القُصّاص يستمدون قصصهم تارة من الأساطير و الخرافات السائرة المنتقلة بين الأمم ، و تارة من الأخبار و الأحاديث الخرافية و التاريخية المأثورة عن العرب أنفسهم ، وعمن جاورهم " (٢)

وإذاً فالقصة العربية قديمة قدم العرب أنفسهم و أصيلة أصالة النثر العربي الذي ذهب أكثره وبقيت منه آثار تدور حول أمثال العرب و أيامها و مآثرها .

يقول محمود تيمور في معرض حديثه عن القصص في أدب العرب : " أكاد أزعم أن الأمة العربية لا ينافسها غيرها فيما صاغت من قوالب التعبير عن القصص . فنحن الذين قلنا في غابر الدهر : قال الراوي ، و يحكى أن ، وكان يا ما كان ، إلى آخر تلك الفواتح التي يمهد بها القَصّاصّ العربي في مختلف العصور لما يسرد من أقاصيص " (٣)

---

(١) تاريخ الأدب العربي " كارل بروكلمان " ١/١٢٨ ـ دار المعارف ط ٣ ١٩٦٢م .

(٢) أنظر " القصص فى أدب العرب ماضيه وحاضره " لمحمود تيمور ص ٢٥

٢. أدلة أصالة القصة العربية

على أننا إذا أردنا دليلاً على هذه الأصالة فإن أمامنا عدة مظاهر يكفي واحدة منها للتدليل على قدم وأصالة العنصر القصصي في الأدب العربي ، و من هذه المظاهر ما يلي :

أ. اللغة

و حين ننظر في اللغة العربية من أجل أن نستبين الصلة بين العرب و عنصر القصة من خلال عنصر اللغة ، فإننا نجد مجموعة من الألفاظ تدل بوضوح على رسوخ العنصر القصصي من حيث هو لون من ألوان التعبير الأدبي في المجتمع العربي . و هذه الألفاظ منوعة بحيث تعطي دلالة على تنوع الآثار القصصية تنوعاً يلائم الباعث للأثر القصصي من ناحية ، و يلائم وظيفته التي يراد لها أن يحققها من ناحية أخرى . كما تؤكد هذه الألفاظ أن العقلية العربية كان لها علم بالإبداع القصصي بوجه عام . من هذه الألفاظ "الحكاية " و هي تحمل معني المحاكاة التي هي مرتبطة بمحاكاة الواقع و كأن المتحدث يتحرى أن يصور الواقع الذي حدث .

و هناك أيضاً " الرواية " و هي تعني نقل الحديث إلى آخر ، و كذلك " المقامة " و هي في الأصل من المقام ، و هو المكان الذي يقوم فيه المتحدث إلى القوم ،كما يطلق على القوم المتجمعين في المكان الذى هو بمثابة المنتدى يستمع فيه القوم من أحدهم إلى سرد الأحاديث و الأخبار ، قال زهير :

و فيهم مقامات حسان وجوهها

و أندية ينتابها القول و الفعل

و هناك " السمر " و هو يطلق على الليل و ما يرد فيه من أحاديث و أخبار .ثم صار يراد به ذلك الحديث الذي يتناول في تلك المجالس الليلية ،و قد ضاقت الدلالة شيئاً فشيئاً حتى صارت تعني ضرباً من الحكايات و القصص المتميزة بنوع من السرد القصصي ،و التي يراد منها تزجية الفراغ في الليالي المعتمة و قد اجتمع القوم للحديث و الاستماع كما نجد أيضاً " الخرافة و هي كما قال الليث : " حديث مستملح كذب " [١] و كذلك الأسطورة ، و المثل كما يعني العبارة المنطوية على الحكمة و الرأي السليم فإنه يطلق كذلك للدلالة على القصص و الحكايات التي

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري ٣٥١/٧ ـالدار المصرية للتأليف والترجمة / تراثنا سنة ١٩٦٦م .

كانت الأمثال عنواناً لها ، والعرب يمتازون بأمثالهم المبنية على الحوادث " لأن الأمثال عندهم نوعان : أمثال حكيمة كقولهم " الجار قبل الدار ، و العتاب قبل العقاب " و نحوهما مما يتناوله الناس و ترويه الأمم بعضها عن بعض.... وأمثال مبنية على الحوادث ، و هي خاصة بهم لأن الحوادث جرت كقولهم " وافق شن طبقة ، و الصيف ضيعت اللبن ، و سبق السيف العزل..... الخ " و هذه الأمثال وأشباهها كثيرة في أقوال الجاهلية (١) ، و هذه الأمثال و الحكم تعد جذوراً أصيلة للقصة العربية في العصر الجاهلي ، لأن تلك الأمثال قد اشتملت على كثير من القصص الواقعية و التي ظل الأحفاد عن الأجداد يروون تفاصيلها و يقفون عند مواطن العبرة فيها " (٢)

و لعل أشهر الألفاظ العربية التي تدل على شكل التعبير القصصي و أكثرها صراحة في ذلك هو لفظ "قصة " الذي يحمل مدلولاً لغوياً حسنا يعمق الارتباط بالمدلول الفني للقصة .

---

(١) تاريخ أدب اللغة العربية جورجي زيدان ١/٤٧،٨٤ ط : دار الهلال مراجعة شوقي ضيف ١٩٥٧ م .

(٢) أنظر القصة العربية في العصر الجاهلي د/ على عبد الحليم محمود ص ٢٥١ ط: دار المعارف ١٩٧٩ م .

قال في اللسان : " و القاص الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها و ألفاظها [٣]

وهكذا تعطينا اللغة دليلاً قويا على أصالة العنصر القصصي في تراث العرب ، ووعي العقلية العربية منذ القديم لألوان عديدة من أشكال التعبير القصصي .

ب- القرآن الكريم

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم قد جاء على وجه يعرفه العرب في طريقة التعبير و إن مفرداته و سائر ألفاظه يعرفون معناها و يستعملونها . قال تعالى : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ [٤] و قال : ﴿ وهذا لسان عربي مبين ﴾ [٥]

و قال :﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون ﴾ [٦]

و من هنا فإنه يستدل بالقرآن الكريم على معرفة العرب للقصة بما يأتي :-

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة " قصص " طبع دار المعارف ١٩٨١ م تحقيق عبد الله الكبير وآخرون .

(٢) سورة الشعراء آية : ١٥١

(٣) سورة النحل آية ١٠٣ .

(٤) سورة يوسف آية: ٢ .

١- استعمال القرآن الكريم لكلمة قصة و مشتقاتها في عدة مناسبات .و من ذلك قوله تعالى في سورة يوسف ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ [١]

و في سورة الأعراف قال تعالى ﴿ فلنقصنّ عليهم بعلم ﴾ [٢] و قال : ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ [٣] و قال ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ [٤] و في سورة القصص قال تعالى ﴿ فلما جاءه و قص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾[٥] و في سورة هود قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم و حصيد ﴾[٦] و قال ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك و جاءك في هذه الحق و موعظة و ذكرى للمؤمنين ﴾ [٧] إلى غير ذلك من الآيات الكريمات .

---

(١) سورة يوسف آية ٣ .

(٢) سورة الأعراف آية ٧ .

(٣) الأعراف آية ١٠١

(٤) سورة الأعراف آية ١٧٦ .

(٥) سورة القصص آية :

(١) سورة هود آية : ١٠٠

(٢) سورة هود آية : ١٢٠ .

٢- ما كان القرآن ينفيه عن نفسه من أنه من قبيل الأساطير، أو أنه أساطير الأولين ،كما كان يزعم كفار قريش . فدل ذلك على أن العرب يعرفون الأساطير ، و إلا لما نسبوا القرآن بما جاء به من قصص و أخبار إلى إنه أساطير، قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (٨) و في سورة الأنفال ﴿ و إذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (٩) و في سورة المؤمنون : ﴿ لقد وعدنا نحن و آباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (١٠) و في سورة النحل : ﴿ و إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ (١١) و مثل هذه الآيات التي وردت فيها أساطير الأولين على نحو ما ورد في سور النمل (١٢) و الفرقان (١٣) و الأحقاف (١) و القلم (٢) و غيرها .

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٥

(٢) سورة الأنفال آية : ٣١

(٣) سورة المؤمنون آية : ٨٣

(٤) سورة النحل آية : ٢٤

(٥) آية رقم : ٦٨

(٦) آية رقم : ٥ .

كقصص ملوك كندة و الحيرة و الغساسنة .[١] وكثيراً ما كانت أيام العرب وأنسابهم و أخبار حروبهم و وقائعهم مادة خصبة لقصصهم ، وكذلك أخبار رحلاتهم وأسفارهم الكثيرة وما يستتبعها من أخبار الفتاك والصعاليك .[٢]

٣ – أثر القصة القرآنية في نمو القصة النبوية

حين جاء الإسلام و دخل العرب فيه أفواجاً ،كان للقصة في ظله شأن ، و أي شأن. ذلك لأن القرآن الكريم جاء يحمل معاني الدين الجديد ، و يدعو إلى التوحيد ، و في سبيل تلك الغاية استخدم ضمن ما استخدم من أساليب البيان طريقة التعبير بالقصة كقصة آدم و زوجه وإغراء الشيطان لهما بالأكل من الشجرة ، و ما كان من أخبار الرسل بعد ذلك . و قصصهم مع أقوامهم و عاقبة المكذبين مثل قصة عاد، و ثمود ، و فرعون و السحرة ، و هامان و قارون ، و كقصة مريم و زكريا ، و يوسف و غيرهم ممن قص علينا القرآن الكريم قصصهم و قال ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفتري و لكن تصديق

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١/العصر الجاهلي د/ شوقي ضيف ص ٣٩٩ ـدار المعارف ط ٥ ١٩٨٢ ، وبروكلمان-تاريخ الأدب العربي ١٣٣/٣،١٣٤

(٢) انظر ايام العرب في الجاهلية " جاد المولى وآخرين ص ٤٢ طبع الحلبي بالقاهرة ١٩٥٨م .

الـــذى بين يديـــه و تفصيـــل كل شيء و هـــدى و رحمـــة لقـــوم يؤمنـــون ﴾.(٣)

وإن هذا الاستخدام القرآني للقصة ليدلنـــا علـــى مـــا كـــان يتمتع به العـــرب آنذاك من تعلـــق شـــديد بالأســـلوب القصصـــي و التأثر به ، والتذوق الجيد للشـــكل الفنـــي ، الـــذي تـــبرز فيـــه القصة ، ولو لم يكن النـــاس وقتـــها علـــى هـــذا المســـتوى مـــن مواكبـــة الفـــن القصصـــي و ممارســـة أســـاليبه ،والاســـتجابة لتأثيراته ، لما خاطبهم القرآن بهذا الأسلوب .وإنـــه فـــي الوقـــت الذي يعكس فيه القـــرآن لنـــا هـــذه الحقيقـــة باســـتخدامه لفـــن القصة ، فإنه نمَّي فـــي القـــوم الذيـــن كـــان يخاطبـــهم و يتـــنزل عليهم الحاسَّة القصصية ، لتبرز أكثر و أكـــثر بمـــا يقدمـــه لـــها من نماذج فنية راقية تنمي ما لديهم مـــن ملكـــة متأصلـــة (٤)

ولقد كان من آثار ذلـــك أن اتســـعت الرقعـــة القصصيـــة ، وزادت المساحة الأدبية ، التي أصبـــح يمثلـــها اللـــون القصصـــي في النطاق النثري . فقـــد شـــجع القـــرآن الكريـــم علـــى إنشـــاء القصص لاستخـــدامهـــا في الأغـــراض الديـــنية ، مـــن تربيـــة و تعليـــم ، و توجيـــه و ترغيـــب و ترهيـــب ، ووعـــد ووعيـــد ، فاستخدمها الرسول ﷺ . إذ كـــان عليـــه الصـــلاة و الســـلام أول

---

(١) سورة يوسف آية: ١١١

(٢) انظر التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب فصل القصة فى القرآن ص ١١١ وما بعدها ـدار المعارف بالقاهرة

من نهج نهج القـــرآن الكريـــم و ترســـم خطـــاه فـــي توظيـــف القصة من أجل نشأة الوعـــي ، و تعميـــق مبـــادئ الإســـلام فـــي النفـــوس .

و من هنا يمكن القول بأن لفـــت القـــرآن للفـــن القصصـــي ،واستخدامه كأداة فعّالة في نشر الدين الجديـــد كـــان لـــه أعظـــم الأثر في وضوح هذا الفن ، وإعطائه أبعـــاداً فنيـــة ، بمـــا أمـــده القرآن من روافد ذات أثر فـــي نمـــو القصـــة . علـــى نحـــو مـــا سأوضحه في حديثي عن القصة النبويـــة إن شـــاء الله .

القصة في الأدب النبوي

ـ١ـ

تمهيد

أشرت في حديثي إلى أن القصة نبتت في الأدب العربي قبل الإسلام فيما عرف من حكايات حول موارد الأمثال ، و فيما عرف من حكايات وأساطير عن الملوك و الأبطال ، فيما كان يقصه القصاص في سمرهم و منتدياتهم حول مضارب الأوتاد و الخيام . و كانت هذه القصص في مجموعها عملاً بدائياً لم تتضح رسومه الفنية بعد .

و قلت إن القرآن الكريم حين نزل على الرسول عليه الصلاة و السلام اتخذ من القصة أداة تعبيرية لإقناع الناس بالدين، و ترسيخ مبادئه في أذهانهم ، و بيان عاقبة المستكبرين منهم . و أنه حثَّ الدعاة على استخدام هذا الأسلوب حين قال " فاقصص القصص لعلهم يتفكرون " (١)

و بينت أن الرسول صلى الله عليه و سلم تأثر بالقرآن الكريم في أسلوبه في الدعوة ، و حثه على استخدام القصة ، لترسيخ المبادئ و المفاهيم الإسلامية في أذهان الناس فكانت القصة وجهاً مشرقاً من وجوه البيان النبوي .

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٧٦ .

-٢-

و كما هو معلوم فقد نشأ صلى الله عليه و سلم بين قوم شهد لهم العالم كله بروعه البلاغة و ذروة الفصاحة ، وقوة البيان ، فكان أحسنهم بياناً ، و أفصحهم لساناً ، وأسلسهم أسلوباً ، و أسلمهم لغة ، و أجزلهم لفظاً ، وأرقهم تعبيراً ، و أعذبهم كلاماً ، و أغزرهم معنى ، وأعمقهم فكراً ، و أرقاهم أدباً ، و أكثرهم إحاطة بأساليب العربية و ألفاظها : مستأنسها وغريبها ، قريبها وبعيدها ، بدوها و حضرها ، يدلنا على ذلك ما روى أن علياً رضي الله عنه سأله يوماً: " يا رسول الله نحن بنو أب واحد و نراك تكلم الوفود بما لا نفهم أكثره فقال عليه الصلاة و السلام :" أدبني ربي فأحسن تأديبي و ربيت في بني سعد " .

-٣-

و من منطلق التسليم بما للرسول عليه الصلاة و السلام من فصاحة و بلاغة أعيت الأدباء ، و أعجزت الشعراء – مع أنه ليس بشاعر – يمكننا التسليم بأنه صلى الله عليه و سلم كان يمتلك ناصية البيان ، و يعرف فنون القول ، و وجوه التعبير ، حتى يصل بدعوته إلى الهدف الأمثل الذي ينشده ، و يعمل للوصول إليه .

ولذا نراه ينـــوع فـــى أســـاليب القـــول ، فتـــارة يســـتخدم أسلوب الوعظ المباشر مـــن أمـــر أو نـــهي أو تقريـــر ، و تـــارة يلجأ لضرب المثل ، و مـــرة أخـــرى يســـوق الحكمـــة ، و طَـــوراً أخر يضع موعظته في أسلوب قصصـــي . و قـــد كـــانت القصـــة من ابـــرز الفنـــون فـــي الأدب النبـــوي تقديـــراً منـــه صلـــى الله علـــيه و سلم لدور القصة في التـــأثير ، و إدراكـــا منـــه لأثرهـــا في المتلقي . إذ الفطرة تدعو النفس البشرية إلـــى الإقبـــال علـــى القصة و الإصغاء للقاص اســـتجابة لحـــب اســـتطلاع المجـــهول ، و متابعة للأحداث ، و تطلعاً إلى النتـــائج و النـــهايات .

ومن هنا كان للقصـــة – كفـــن مـــن فنـــون القـــول – فـــي الأدب النبـــوي وجه بـــارز أحـــدث تـــأثيراً كبـــيراً فـــي أســـاليب التعبـــير ،و رســـخ هـــذا الفـــن الـــذي لـــم يســـتطع الجـــاهلون تأصـــيله و كانت عاملا قوياً في انتشـــار الفـــن القصصـــي فيمـــا بعد على ما سيتضح في الموضوعـــات التاليـــة :

٣- إن القرآن الكريم نزل يحمل بين دفتيه كثيراً من القصص المتنوعة عن الأنبياء و أممهم ، و هي قصص صيغت في بناء محكم عجيب ، يحفل بالعناصر الفنية [٣] و لو لم يكن العرب يعرفون هذا اللون من أساليب التعبير القصصية لما توجه به إليهم و خاطبهم به " و هم لا يخاطبون بغير ما يفهمون " .[٤]

و من هنا فورود هذا الفن القصصي في القرآن الكريم يعطي صورة صادقة لواقع قصصي كان العرب يعرفونه ويمارسونه ،مما يؤكد أن العرب -قبل و حين نزول القرآن - قد مارسوا الشكل القصصي بطريقتهم الخاصة .

على أنه مما يجب التنبيه إليه سلفا أنه لن يضير القصة العربية في مهدها الأول أن خلت من بعض المقومات التي اشترطها نقاد القصة المحدثون ، إذ أنه يكفي أن يتحقق فيها المدلول العام لفن القصة بحيث يأتي النص القصصي مصوراً لحدث متكامل ،له بداية و وسط و نهاية ، فما كان

---

(١) آية رقم : ١٧ .

(٢) كما في الآية رقم : ١٥ .

(٣) انظر القصص القرآني في منطوقة ومفهومه " للأستاذ / عبد الكريم الخطيب " ص ٢٠ مطبعة السنة المحمدية ١٩٦٤م .

(٤) النثر الفني في القرن الرابع ص ٤٤ د/ زكي مبارك دار الكتاب العربي للطباعة ، والنشر بالقاهرة ١٩٣٤ م .

لأقدم القصص أن ينشأ وثبة واحـــدة لـــم تتقدمـــها خطـــوات . إذ ليس من المعقول أن يولد فن كامل النمـــو مســـتوي الخلـــق .

ج- واقع الحياة الأدبيـــة .

كذلك من الأدلّـــة علـــى معرفـــة العـــرب الأوائـــل للقصـــة واقعهم الأدبي ،حيث شهروا بالفصاحة ، وعرفـــوا بأنـــهم أربـــاب البلاغة والبيان وعرف عنهم التفنن فى القـــول . ومـــا الحكايـــات التى قيلت فى موارد أمثالهم ببعيـــدة عـــن ذاكرتنـــا ، وإن كـــانت لم تستوف حظها من الحبكة القصصية ، إلا أنـــها كـــانت خطـــوة على الطريـــق .

وقد كانت هناك أمور تدفـــع إلـــى الاهتمـــام بالقصـــة فـــى المجتمع العربى ، و تشجع على ازدهارهـــا ، فـــوق مـــا تحققـــه للناس من المتعة و التســـلية ، بســـبب مـــا تشـــتمل عليـــه مـــن مظاهر تمجيد القبيلة ، و الإشـــادة بماضيـــها ، و ذكـــر أســـلافها و التعريف بمفاخرهم و مآثرهم ، فكان ترديـــد قصـــص أيامـــهم و أخبار وقائعهم وانتصاراتهم أمـــراً محببـــاً إلـــى نفوســـهم إلـــي حد كبـــير .

و كان القاص ــ فى مجالس سمرهم وحول مضارب الخيام – كما يقول مؤرخو الأدب – يقوم إلى جانب الشاعر في تلبية مطـــالب القوم ورغبتهم في الاســـتماع عن الأولين ممـــا أثـــر عن "طسـم "وجديس " و "عاد و الريح " و غيرهم من الأمم البائدة ، و معرفـــة حكايات السلف من الملوك و الأبطال مـــن العـــرب و غـــيرهم ،

الفصل الثاني

" البنية الأساسية في القصة النبوية

يقصد بالبنية القصصية ذلك البناء الذي يكوّن القصة في مجموعها و يضم جميع أحداثها ، بحيث يؤلف عملاً فنياً تاماً في القصة بحيث يؤلف عملا فنيا تاما ينتظم ثلاث دعائم هى : البداية والوسط والنهاية وهذه ا لدعائم تشكل الإطار العام للقصة بحيث تأتى هذه الدعائم من الترابط العضوى الذى يجعل الأحداث فى القصة يشدّ بعضها بعضاً و يسلم كل جزء فيه إلى ما يليه وبحيث تأتي هذه الأحداث متلاحقة متوالية ، و أن يراعى فيها مبدأ السببية بمعني تسبب الحادثة الأولي في ظهور و بروز حادثة ثانية فتكون الأولي بمثابة مقدمة ، و الثانية نتيجة لها ، أو بعبارة أخرى أن تكون الأولي سبباً و الثانية مسببة عنها ، و ذلك مظهر من مظاهر الحبكة القصصية على ما سيأتي بيانه إن شاء الله

أ- المقدمة التمهيدية

و قد وجدت من خلال استقرائي و تتبعي لنصوص القصص النبوية أن البنية فيها تبدأ -غالباً- بمقدمة تمهيدية مشوقة تشكل جملة أو عده جمل قصيرة تسبق عرض القصة و سرد حوادثها بحيث تعطي للسامع فرصة يتهيأ فيها ذهنياً لتلقي أحداث القصة و لتربطه بجوها و ذلك بما تقدمه له

من صورة للموقف عند بداية الأحداث وهى بذلك تمهد الأرضية التى تعرض عليها مشاهد الأحداث .

ب- البداية

تلي المقدمة البداية التي تتضمن الأحداث التي تتفرع عنها التفاصيل و إذا كانت المقدمات في القصة النبوية تعطيها حيوية بما تقدمه للمتلقي - قارئاً أو سامعاً - من تشويق و إثارة و اهتمام ، فإن البداية هى الأخرى ذات حيوية بارزة تكتسبها من طبيعة الأحداث التي احتوتها القصة ، كما أنها لا تخلو من عناصر التشويق التي تجعل المتلقي أكثر إقبالاً عليها و متابعة لها ، و تلك هي الدعامة الأولي في البنية الأساسية ، تّسلم إلى :

جـ- الوسط

وهو الذي يكون حافلاً بتشابك العناصر ، و الذي يوصف بأنه تأذيم للمواقف الأولية ،و نقطة التطور للمشكلة بمختلف أنواعها و شتي صورها ، بما في تلك المشكلات من

عناصر درامية تثير أنواعاً من الصراع الذي يؤدي إلى سلوك أو تفكير معين .[١]

و منطقة الوسط هذه هي التي تحقق للمتلقي المتعة الذهنية بما تتضمنه من أحداث متشابكة ، و لما تنطوي عليه أحداثها من تأزم في المواقف ، بما يطلق عليه اسم " العقدة " ، و لما تشتمل عليه من تشعب الأحداث و توليدها ، و تسلسل تلك الأحداث و ترتيبها و إحكامها ، بحيث يتحقق فيها مبدأ السببية و هو ما يطلق عليه اسم "الحبكة " . و على هذا فإن منطقة الوسط في القصة تشكل نقطة مهمة جداً ، إذ أنها تشكل مجمعاً حيوياً لكثير من العوامل و العناصر المختلفة التي تنشأ عن الأحداث في منطقة " البداية ".

و من هنا فإن الوسط في القصة مرحلة نامية ، و متطورة عند بداية القصة و هذا يعبر على أن هناك علاقة وثيقة بين البداية و الوسط .

---

(١) انظر رشاد رشدى فى " فن القصة القصيرة " ص ١٧ وما بعدها مكتبة الأنجلوا المصرية طبعة مطبعة الفنون الحديثة ، ١٩٧٠م . وكذلك لاسل كرومبى فى " قواعد النقد الأدبى " ص ١٠٢ وما بعدها إلأى ص ١٢٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ترجمة محمد عوض محمد سنة ١٩٤٦م .

د- النهايــة

و حــين تصل الأحداث إلى ذروتــها فــي منطقــة الوســط و تتعقد الأمور فيها يأتي الانفــراج متدرجــاً فــي طريــق الحــل فتكون النهايــة

و النهاية جزء مهم فــي كيــان البنيــة لأي قصــة ، إذ أن له قيمته الحاسمة في تقديــر القصــة و الحكــم عليــها ، فعلــى النهاية يتوقف الأثر النهائي في نفــس المتلقــي . و قــد اســتبان لي أن النهاية في القصة النبوية قد جــاءت علــى النمــط الــذي جاءت عليه بدايتها ، من حيث قوة الســبك ، و امتــلاك ناصيــة البيان و الوصول نحو الهدف الــذي ترمــي إليــه . و قــد أتيــح لها من مقومــات القــوة في هذا الصــدد مــا يجعلــها تتســق و تتشابه مع البداية فــي امتلاكــها للمتلقــي و التــأثير عليــه . تلك هي دعائم البنية الفنيــة للقصــة النبويــة ، وقــد أتــت فــي معرض من دقة التعبير ، وروعه التصويــر ، و صــدق الحديــث ، و الابتعاد عن الخيال ، في معني كريــم شــريف و قــد احتــواه لفظ منتقي رشيــق ونظمه أســلوب سلس فــي بنــاء قــوي و نسج محكم متين كما سيأتي الحديــث عنــه عنــد الخصــائص الفنية للقصة النبوية إن شــاء الله .

هـ- نماذج تطبيقيـــة

و لنعش الآن مـــع بعـض نمـــاذج مـــن القصـــص النبوي لنتعـــرف علـــى تلـــك الدعـــائم و العنـــاصر التـــي تؤلـــف البنية القصصية في القصـــص النبـــوي الكريـــم . و من ذلـك

قصة الابرص و الاقرع و الأعمى

فقد بدئها الرسول ﷺ بمقدمة تمهيديـــة جـــاءت علـــى صورة تقريرية . إذ قررت القصـــة وصـــف أبطالـــها : " أبـــرص و أقرع و أعمى " و حيـــن قـــررت عددهـــم فـــهم ثلاثـــة ، كمـــا تضمنت القصـــة التحديـــد التـــاريخي لمجمـــل زمنـــها لكونـــها حدثت في الماضي ، و بالذات في بنـــي إســـرائيل ، و أن هـــؤلاء الثلاثـــة خضعـــوا لتجـــربة الابتـــلاء و الامتحـــان مـــن الله عـــز و جـل .

و قد حفلت المقدمة في صورتها هـــذه بعنـــاصر تشـــويقية تحفز المستمع إلى الاهتمام بمتابعـــة القصـــة و الحـــرص علـــى معرفة نهايتـــها .

و قد تجلت هذه العناصر فيما يلي :-

أ- مقدمة القصة تقول :- " إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص و أقرع و أعمى ، فأراد الله أن يبتليهم ، فهذه المقدمة أثارت الاهتمام لكونها بداية قصة عن بني إسرائيل و بنو إسرائيل قوم كثيراً ما تُنقل عنهم الأحداث العجيبة ، و الأحداث العجيبة عادة مثار تطلع و اهتمام

ب-وصف أبطال القصة بأوصاف مثيرة ، هي البرص و القرع و العمى . و هذه الأوصاف تثير لدى المستمع الرغبة في معرفة ما سيحدث من هؤلاء الثلاثة الموصوفين بهذه الصفات .

جـ - قوله " فأراد الله أن يبتليهم " . التعبير بكلمة الابتلاء تبعث في قلوب المستمعين درجة كبيرة من التشويق إلى معرفة الكيفية التي تمت بها تجربة الابتلاء و النتيجة التي انتهت إليها .

ثم تبدأ القصة بسرد الأحداث . فتصف أبطالها ، و ما يتمناه كل واحد منهم ، و سؤال الملك إياهم عما يحب كل منهم من أموال بعد ذهاب ما بهم من عيوب و أمراض و إغداق الله عليهم بالعطاء .

و نلحظ هنا أن القصة تسير في بنائها في بطء و تأن ، إذ يقف السرد فيها عند كل جزء يصفه ، و يفصل الحديث عنه ، و يصور ظروف الحدث و ملابساته .

فإذا ما انتهينا من مرحلة الوسط ، و هي ا لمرحلة الحرجة التي تتشابك فيها العناصر ، و تبرز فيها العقد و المشاكل ، وجدنا القصة تضع أبطالها أمام مواقف جديدة لم تكن في حسباتهم . و ذلك حين جاء الملك إليهم بعد ذهاب ما بهم من سوء ، و توافر لهم ما يحبونه من مال -حيث جاء إلى كل واحد منهم في صورته السابقة و ما كان عليه من فقر و من ضيق يطلب منه معونته و معروفاً ، فإذا الأبرص و الأقرع يتخذان موقف متشابهاً ، بينما الأعمى يسلك مسلكاً مغايراً . و هنا نجد أنفسنا أمام نوع من الإثارة و الانفعالات المختلفة إزاء ما يجري من أحداث و مواقف ، مما يجعلنا نتجاوب مع العرض القصصي بشيء من الخوف و الفزع أو بالشفقة و العطف ، أو بأي لون من ألوان التوقع و الترقب " وقدرة القصة على الإثارة يعكس- بلا شك -

مدى الارتباط الوثيق القائم بين العمل القصصي و متلقيه كما يعطي صورة لجودة العمل الفني و توثيقه . (١)

فإذا ما وصلنا إلى نهاية القصة وجدناها تنتهي بالمفاجأة التي تحمل الجزاء على لسان الملك " إنما ابتليتم فرضى الله عنك و سخط على صاحبيك " (٢)

وهكذا تأتي القصة النبوية في نهايتها مواكبة لقوة بدايتها ، حيث أتيح لها من قوة البنية و إحكام نسيجها ما يجعل إحكام نهايتها يضارع قوة بدايتها في امتلاكها للمتلقي.

" و النهاية جزء مهم في كيان القصة له قيمته الحاسمة في تقديرها والحكم عليها ، و على النهاية يتوقف الأثر النهائي في نفس القارئ أو السامع " (٣)

٢- قصة المستلف ألف دينار

و إذا انتقلنا إلى القصة التالية : - قصة " المستلف ألف دينار " فإننا نجد فيها - كما هو الشأن في أية قصة نبوية - البناء قوياً متماسكا

---

(١) انظر " دراسات في القصة العربية " د/ محمد زغلول سلام ص ١٣ بنشأة المعارف بالأسكندرية ١٩٧٣ م.

(٢) انظر النص الكامل للقصة ص ٤٤ وما بعدها في موضوع " أهداف القصة " موثقة برواية مسلم .

و قد بدت فيه العلاقات بين المشاهد و الأحداث مترابطة و مرتبة بحيث يترتب على البداية مشهد جديد يمثل وسط القصة ، يسلم ذلك المشهد ، إلى النهاية بحيث يكون متطوراً عن المشهد الأول . فبداية القصة تقول : إن النبي صلى الله عليه و سلم " ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : أئتني بالشهداء أشهدهم . فقال كفى بالله شهيداً ، قال : فأئتني بالكفيل . فقال : كفى بالله كفيلاً . قال : صدقت . فدفعها إليه إلى أجل مسمى " .

إلى هنا تنتهي بداية المشهد الأول من القصة ، و هو مشهد عجيب مثير يشكل محاورة بين طرفين : الطرف الأول . رجل يريد أن يستلف ألف دينار ولا كفيل له و لا شاهد عليه إلا الله ، و الطرف الثاني يرضى بالله شاهداً و كفيلاً و يدفع إليه الألف في ثقة و اطمئنان ، و يفترق الرجلان ، كل في سبيله ، و يسدل الستار على هذا المشهد ، ولكن يظل المُشاهد في حالة تطلع و ترقب إلى مستقبل الأحداث ، ليكتشف إلى أين ينتهي المطاف بهذين الرجلين . وهكذا تنجح البداية في امتلاك المتلقي ، و إثارة اهتمامه بمتابعة القصة إلى النهاية ،حيث يأتي الفصل أو المشهد الثاني و هو

قـولـه صلى الله عليـــه و ســلم :" فخـرج إلـى البحـر فقضـي حاجته ، ثم التمس مركبـا يركبـها ، يقـدم عليـه للأجـل الـذي أجله ، فلم يجد مركبـاً ، فـأخذ خشـبه فنقرهـا وادخـل فيـها الألـف دينار و صحيفة منه إلى صاحبـه ، ثـم زجـجّ موضعـها ، ثم أتى بها إلى البحر فقال : اللهم إنك تعلم أنـي كنـت تسـلفت فلاناً ألف ديـنار ، فسـألني كفيـلاً ، قلـت : كفـى بـالله كفيـلاً فرضى بـك ، و سـألني شـهيداً ، فقلـت : كفـى بـالله شـهيداً فرضى بك ، و أني جهـدت أن أجـد مركبـاً أبعـث إليـه الـذي له فلم أقدر ، و إني استودعتها ، فرمى بـها فـي البحـر حتـى ولجت فيه ، ثم انصرف ، فخرج الرجل الذي كـان أسـلفه ينظـر لعل مركباً جاء بماله ،فإذا بالخشبة التـي فيـها المـال ، فأخذهـا لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المـال و الصحيفـة(١)

فهذا المشهد- كما هو واضـح- مـترتب علـى المشـهد الأول . فالمقترض يريد الوفاء بعد أن قضـى حاجتـه التـي مـن اجلها اسـتلف المـال ، و هـو حريـص علـى أداء الديـن فـي الوقت المحدد الذي اتفق عليه مع صاحبـه فـي المشـهد الأول ، وهو لذلك يلتمس مركباً لكنـه لا يجـد .

---

(١) صحيح البخاري ص ٣ من صـ١٢٤ : ١٢٥ ومسند الإمام أحمد : كتاب باقي مسند المكثرين رقم ٨٢٣٢ ـتحقيق أحمد محمد شاكر دار المعارف ١٩٥٥ م .

و لنا أن نتصور مبلغ الأزمة التي هو فيها ، و القلق الذي لابد أن يستبد به وهو الرجل الحريص على الوفاء ، و على تحقيق التزاماته التي أشهد الله عليها و كان له كفيلاً . و في مّذلهمّ حيرته و قلقه ، يفتح الله عليه بفكرة رأي فيها المخرج الوحيد من هذه المشكلة ، إذ اهتدى إلى خشبة فجوفها ووضع فيها المال و الصحيفة وهو تصرف أملاه عليه الموقف الحرج الذي هو فيه . وواضح أن هذا المشهد قد ترتب عليه المشهد الأول حتى في الأبعاد عير الملحوظة بأول وهلة . فهذا الموقف الذي اتخذه الرجل هنا حين أخذ الخشبة وجوفها ، ووضع فيها المال و الصحيفة إلى صاحبه ، إنما هو أثر من آثار الموقف الأول الذي اتخذه في البداية حين طالبه صاحبه بالشاهد و الكفيل ، ولكنه وقتها لم يجد شاهداً و لا كفيلاً إلا الله ، و قد رضي به صاحبه ، و لذلك فهو هنا يفعل ما يفعل وقد توجه إلى الله الشاهد الكفيل الذي من أجله يجد نفسه ملزماً بسداد الدين ، و قد وقف على البحر ليرمي ما فيه بالخشبة ، و من الجانب الآخر نري الرجل المقرض يخرج في الميعاد الذي حدد في المشهد الأول منتظراً ماله .

و تنتهي القصة بهذه المفاجأة ، فإذا هـو يجد الخشبة ، فيأخذها حطباً لأهله ، و يلهمه الله الذي رضى به شاهداً و كفيلاً أن ينشرها ليجد ماله ، و قد أوصله إليه الشاهد و الكفيل الذي وثق به واطمأن إليه و هو الله سبحانه و تعالى .

٣ـ قصة الكفل

و في قصة الكفل ، و فيها يقول ابن عمر : – رضى الله عنهما _ سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " كأن الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ، أرعدت و بكت فقال ما يبكيك ؟ أكرهتك ؟ قالت : لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط ، و إنما حملتني عليه الحاجة ،قال : فتفعلين و لم تفعليه قط ؟! قال – أي النبي صلى الله عليه و سلم – ثم نزل فقال: اذهبي فالدنانير لك . ثم قال و الله لا يعصي اللهَ الكفلّ أبداً ، فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه قد غفر الله عز وجل

للكفل . ففي هذه القصة -كما هو واضح من نصها (١) نرى الرسول صلى الله عليه و سلم قبل أن يشرع في سرد أحداثها لأصحابه يقدم بين يديها تمهيداً لها ليجعل السامعين أكثر تشوقاً و اهتماماً لما سيأتي ، مما يجعل قدرتهم على الاستيعاب و تعمق العبرة في القصة أكثر .

فنجده -صلى الله عليه و سلم - يمهد للقصة بتعريف سريع عن بطلها ، و يسميه بأنه "الكفل " وأنه من بني إسرائيل ، ثم تحدد المقدمة أبعاد شخصيته المعنوية حين تصفه بالاسراف في ارتكاب الذنوب أيما إسراف ، و عدم المبالاة في فعل المنكرات .

فهو لا يتورع بأن يقبل على فعل ما يمتع شهوته ، ويرضي هواه كلما أتيحت له الفرصة . و بهذا تثير المقدمة اهتمام المتلقي بشكل أكبر بالقصة و متابعة لأحداثها إلى النهاية .

و المقدمة في الواقع إنما هي معبر نحو القصة بما تقوم به من إشاعة الجو المناسب الذي ينشأ عنه علاقة قوية

---

(١) مسند الإمام أحمد .كتاب المكثرين من الصحابة رقم الحديث ٤٥١٧ . والترمذى باب /: صفة القيامة والرقائق والورع رقم ٢٤٢٠ مطبعة الحلبى بالقاهرة ١٩٣٧م

و حميمة بين القصة و متلقيها ، بسبب ما تثيره المقدمة في نفس المتلقي من أحاسيس و تطلعات و أشواق . و بعد أن رسمت المقدمة صورة البطل و أظهرته بالصورة التي وردت ، شرعت القصة في بداية الأحداث و سرد تفاصيلها ، و يكون قوله صلى الله عليه و سلم " فأتته امرأة .....إلخ

و إذا كانت المقدمات التمهيدية في القصة تعطيها حيوية بما تقدمه للمتلقي من مشوقات تجعله يقبل على القصة ، فإن البداية هي الأخرى ذات حيوية بارزة تكتسبها من طبيعة الحدث ذاته ، كما أنها في الوقت نفسه لا تخلو من عناصر تشويقية تجعل المتلقي أكثر إقبالاً على القصة ، ومتابعة لها . فهذه المرأة تأتي بدافع من حاجتها الشديدة وا لملحة من رجل ذى مال تطلب منه مبلغاً من المال تستعين به على حل مشكلاتها ، لكنه يستغل حاجتها إلى المال فيطلب منها أغلى شيء مقابل ما يعطيها ، و هو شرفها ، و هي لا تجد إزاء حاجتها الشديدة إلى المال إلا أن تستسلم و تمكنه من نفسها . و هنا تدخل القصة مرحلة حرجة ، و هي مرحلة الوسط التي تتعقد فيها المشاكل و تتأزم المواقف ، إذ أنها حين مكنته من نفسها ارتعدت فرائصها ، و بكت خشية

من الله عز و جل ، و يدور حوار بين الرجل و المرأة فيثري الحركة الصاعدة في سياق القصة ، و يدفع بالعناصر و العوامل المحيطة بالموقف إلى خلق موقف ينتهي بنهاية سارّة تنسجم مع هدف القصة من ناحية تأكيد قبول التوبة و في رحمة الله التي وسعت كل شيء ، و التي تجلت في مغفرة الله سبحانه و تعالى للكفل . و هنا ملاحظة جديرة بالتنبيه و الإشارة إليها و هي أن الغالب في أحداث القصة النبوية أنها تجري في نطاق الأسباب و النتائج ، وهي السنة الكونية التي فطرالله الحياة عليها. بيد أننا في بعض الأحيان نجد أن مجرى الأحداث في بعض القصص النبوي يسير في اتجاه معين ، من غير أن تبدو لنا الأسباب التي دفعت في هذا الطريق ،ولكنه اتجاه – في واقع الأمر– يخدم الحبكة القصصية ويحقق الغرض القصصي في النهاية .

وتوجيه الأحداث بهذه الصورة يشعرنا بالقوة الغيبية الكبرى التي تقف وراء ذلك وتتدخل في تصريف الأحداث والأمور وفق وجهات معينة لها أثرها في النتائج .

هذه القوة هي " القدر" الذي يجري وفق أمر الله وإرادته . ومن هنا يكون عنصر القدر في القصة النبوية له

أهميتة في تقدير الأحداث التي تخـــرج بـــهذه الصـــورة ، بحيـــث تتساوى في تقدير متلقي القصة الذي يـــدرك أن القـــدر لا يجـــري بصورة عشوائية لا مـــبرر لـــها ولا غايـــة و "شـــعور الإنســـان بقـــوة غيبية تتدخل في توجيـــه الأحداث نحـــو وجهـــة معينـــة ، و تؤثر على نتائجها التي كثيرا ما تأتي علـــى خـــلاف مـــا أحـــب الناس و قدروا ،أو على غير ما عرفوا ، هـــو عنصـــر هـــام مـــن عناصر التأثير فـــي القصـــة ، يمـــلأ الإحســـاس رغبـــة و رهبـــة ..... و لهذا الإحساس صداه البعيد فـــي النفـــس ، و ذلـــك أن القدر الخفي الذي يسير الأحداث الواردة فيه هـــو قـــوة عظيمـــة كامنة في أسرار الغيب ، ولكنـــها واعيـــة عادلـــة ، لمـــا تنجلـــى عنه في عالم الشهادة من عنايـــة الله بـــالمخلصين الأخيـــار عنـــه فى عـــالم الشـــهادة مـــن عنايـــة الله بـــالمخلصين الأخيـــار وإن ضعفاء ونقمته ومكـــره بـــالمبطلين الأشـــرار وإن كـــانوا أشـــداء أقوياء "[1] و في الوقت الذي يســـير القـــدر فيـــه الأحـــداث لا يتصادم إطلاقاً مع منطلق القصة أو خطتـــها العامـــة ، بـــل علـــى العكس من ذلك ، يشارك في خلق فـــرص افضـــل تحقـــق للقصـــة النجاح و الحبكة و التوفيق. [2] إذ يتدخـــل قـــدر الله هنـــا لإنقـــاذ

---

(١) أنظر القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه " للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص ١٦٥ ودار الفكر العربى القاهرة

(٢) أنظر " سيكولوجية القصص فى القرآن " التهامى نفسرة ص ٤٣٩ الشركة التونسية للتوزيع تونس ســـ١٩٧٤م

موقف المرأة المحتاجة فيرق قلب الكفل لها فيتركها و ينصرف ، بل و يضاعف لها المال الذي جاءت إليه من أجله .

و كما مر بنا في قصة "المستلف ألف دينار " إذ نجد القدر يشارك في تحقيق سير الأحداث و دفع القصة إلي الأمام . فتسير الخشبة التي وضع المقترض المال ، و توجيهها في البحر إلى الجهة التي كان فيها صاحب المال دون أن يعترضها عارض ، أو يصرفها صارف إلى مسار أخر وكذلك خروج الرجل صاحب المال يلتمس مركباً ، لعل فيه ماله ، في الوقت نفسه التي وصلت فيه الخشبة ، و بالدقة حيث وجد الخشبة فأخذها حطباً لأهله ، كل ذلك من فعل القدر وحده و كما في قصة :

٤-الغلام و الساحر

إذ نجد قدر الله تعالى يقف إلى جانب الغلام حين دفعه الملك إلى نفر من أصحابه وطلب منهم أن يذهبوا به إلى جبل شاهق ك "فإن رجع عن دينه و إلا فاطرحوه و هناك رجف بهم الجبل فسقطوا و جاء الغلام سالماً يمشي إلى الملك ، و مرة أخرى يدفعه الملك إلى نفر آخرين ، ويطلب منهم أن

يتوسطوا به البحر : " فإن رجع عن دينه و إلا فاقذفوه في البحر " فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا جميعاً ، ما عدا الغلام الذي جاء يمشي إلى الملك لم يصب بأذى ، و لم يمسسه سوء . فهذه أحداث غير عادية يجريها الله – سبحانه و تعالى – بقدره الذي لا مرد له ، من أجل نصرة أهل الحق ، وإهلاك أهل الباطل ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ [1] وهي أحداث ضمنت للعمل القصصي نوعا من الاستمرار والنمو . فنجاة الغلام كانت سببا في نشوء أحداث أخرى وتطورات جديدة في مسار القصة . تقول القصة : كما رويت في صحيح مسلم " حدثنا هداب بن خالد حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا ثابت بن أبي ليلى ، عن صهيب _ رضى الله عنه _أن رسول الله صلى الله علية وسلم قال كان فيمن كان قبلكم ملك وكان له ساحر فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه فكان في طريقه إذا سلك راهب ، وقعد إليه ،وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتي الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلي الراهب ، وقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسني

---

(١) سورة الأنفال الآية ٨

أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتي علي دأبه عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها ومضي الناس ، فأتي الراهب فأخبره ، فقال له الراهب: أي بتيّ : أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلي فأن ابتليت فلا تدل عليّ . وكان الغلام يبرئ الأكمة [١] والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء . فسمع جليس الملك وكان قد عمى فأتاه بهدايا كثير فقال: ما هاهنا لك اجمع [٢] إن أنت شفيتني ، فقال : إني لا أشفي أحداً وإنما يشفي الله ، فإن أنت دعوت الله شفاك ، فآمن بالله فشفاه الله . فأتي الملك فجلس إليه كما كان يجلس . فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال: ربي ، قال : أولك رب غيري ؟ قال : ربي و ربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجيء بالغلام ، فقال له الملك : أي بني : قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمة و الأبرص و تفعل و تفعل ؟ فقال إني لا

---

(١) الأكمه الذى خلق أعمى

(٢) يعنى أن هذه الهدايا التى هنا جميعها لك إن حصل الشفاء

أشفي أحد يشفي الله ، فأخذه ولم يزل يعذبه حتى دل على الراهب . فجيء بالراهب ، و قيل له ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار [٣] ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال لهم اذهبوا به إلى جبل كذا و كذا فاصعدوا به الجبل فإذ بلغتم ذروته[٤] فإن رجع عن دينه و إلا فاطرحوه ، فذهبوا به و صعدوا به الجبل فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه في قرقور [٥] و توسطوا به البحر فإن رجع عن دينه و إلا فاقذفوه . فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفئت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال :كفانيهم الله ، فقال الملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به

---

(٣) وفى بعض الرويات " فدعا بالمنشار " بالهمزة هما لغتان صحيحتان أنظر شرح النووى جـ٦ص ١٣٠

(٤) ذروة الجبل أعلاها ، ورجفة الجبل تحركه واضطرابه أى أن الجبل تحرك بهم حركة شديدة أسقطتهم من عليه .

(٥) قرقور : السفينة الصغيرة "قارب صغير "

قال: وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد و تصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي [١]

ثم ضع السهم في كبد [٢] القوس ، ثم قل : بسم الله رب الغلام ثم ارمني فانك إذا فعلت ذلك قتلتني . فجمع الناس في صعيد واحد ثم صلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم في صدغه ،فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأتى الملك ، فقيل له ، : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود [٣] في أفواه السكك فَخَدَت السكك ، و أضرم فيها النيران فقال : من لم يرجع عن دينه فاحموه [٤] فيها –أو قيل له اقتحم – ففعلوا حتى جاءت

---

(١) كنانة = جعبة السهام تتخذ من جلود لها خشب فيها . لسان العرب مادة كنن .

(٢) كبد القوس : مقبضها عندالرمى

(٣) الأخدود = الشق فى الأرض . وأبواب السكك = أبواب طرقها

(٤) فى بعض الروايات : فأحموه ومعناه = إطرحوه فيها كرها .

امرأة و معها صبيّ لها فتقاعست [٥] أن تقع فيها . فقال لها الغلام : "يا أمه اصبري فإنك على الحق [٦]

وهكذا يتدخل قدر الله في توجيه الأحداث على خلاف ما أحب الناس ، ليشعر هؤلاء الناس بقوةٍ غيبيةٍ لا تخضع لظواهر الأمور ، و إنما هي قوة عالمة للغيب و الشهادة ، تعلم السر و أخفى ، و تمحص الإيمان ، و تختبر اليقين ، " ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حيى عن بينة " [٧] ، " و ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين " . [٨] و صدق الله العظيم : " أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون . و لقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا و ليعلمن الكاذبين " . [٩] من ناحية أخرى ، فإننا إذا رحنا نبحث عن البنية الفنية لهذه القصة و أجزائها التي تتكون منها ، فإنا نجد القصة قد بدأت بمقدمة تمهيدية

---

(١) تقاعست : توقفت ولزمت موضعها كرا هذا الدخول في النار

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى صـ١٨ صـ ١٣٠صـ١٣٣المجلد السادس . دار الريان للتراث : الطبعة الأولى صـ ١٩٨٧م

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٢

(٤) سورة آل عمران الآية ١٤١.

(٥) سورة العنكبوت الآية ٢ ،٣

موجزة ، وهي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان ملك فيمن كان قبلكم ، و كان له ساحر " ، و قد تضمنت هذه المقدمة ـ على وجازتها ـ عدة معان أسهمت في تصوير المواقف و المشاهد التي احتوتها القصة ، فقد أشارت إلى :

أ ـ شخصية الملك . وهي شخصية مهمة من شخصيات القصة ، فهو ملك و لا تكتفي المقدمة بذكر الملك مع ما يدل عليه هذا اللقب من معني السلطة و القوة اللتين يستطيع بهما أن يسيطر على واقع الناس و حياتهم ، ولكنها تذكر أنه " كان له ساحر " . فالملك لا يكتفي في إحكام السيطرة على المحكومين بملكه فقط ، ولكن يضيف إلى ذلك الاستعانة بالساحر ليّحكمَ بالسحر والشعوذة قبضته على الناس ، حتى يتم لهم إخضاعهم و إحكام السيطرة عليهم ، و من هنا فالساحر يطلب من الملك أن يحضر له علاماً يعلمه السحر ، و يحرص على أن يكون غلاما حتى يضمن مدة أطول لبقاء ملكه و استمرار حكمه من جيل إلى جيل. (١)

ب ـ كذلك ، أشارت المقدمة إلى زمان وقوع القصة دون تحديد للزمن لتتجرد المعاني و تبقى مطلقة يمكن الاستفادة

---

(١) أنظر الحديث النبوى من أوجه البلاغية د / عز الدين على السيد المحمدية بالأزهر ١٩٧٣م

منها بتطبيقها في أي وقت ، ولتظل قائمة إلى نهاية الزمن . (٢)

جـ ـ عمقت المقدمة إحساس المخاطبين بواقع التجربة التى انطلقت منها أحداث القصة وذلك بإضافة " قبل " إلى ضمير المخاطبين في قوله " كان فيمن كان قبلكم " . وفي ذلك ربط للماضي بالحاضر .

وهكذا رسمت المقدمة وأعطت _على وجازتها _ صورة للجو الذي سوف تنشأ فيه الأحداث ، وفي الوقت ذاته أثارت في نفوس المتلقين عوامل التطلع والتشويق لمعرفة ما سوف تكشفه أحداث القصة .

أما البداية فقد جاءت عقب تلك المقدمة ، وكان منها قوله صلي الله عليه وسلم : " فلما كبر _ أي الساحر – قال للملك : إني قد كبرت ، فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه ، فكان في طريقه – إذا سلك _ راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ٠٠٠ الخ".

---

(١) أنظر أصحاب الأخدود للرفاعى سرور صـ ٩ دار التراث العربى للطباعة بالقاهرة

وقد أوقفتنا تلك البداية علي الملابسات والظروف التي دفعت الساحر إلي أن يطلب من الملك أن يبحث له عن غلاماً يعلمه السحر ، وهي أنه كبر فشعر بقرب النهاية ، ولذا فهو يريد خليفة له ، وشرط هذا الخليفة أن يكون غلاماً أي صغير السن ليمتد به العمر فيظل الملك الكافر -عن طريق الوهم والدجل والخرافات – مهيمناً علي الناس مسيطراً عليهم . لكن إرادة الله شاءت أن يكون في طريق الغلام إلى الساحر راهب يلتقي به الغلام ويسمع منه ويتردد عليه ، فيكون من أمره أن الله قد أيده بالكرمات ، إذ كان " يبرئ الأكمة والأبرص ، ويداوي الناس من سائر الأدواء ".

ثم تأتي مرحلة الوسط ذات الأحداث المتأزمة والمتشابكة المعقدة . وذلك حين يسمع جليس الملك بالغلام ، وكان أعمي فشفاه الله ورد عليه بصره استجابة لدعوة دعاها له الغلام بعد أن آمن . وتتأزم الأمور حين يسأله الملك : من رد عليك بصرك ؟ فيقول: ربي ، فيشتد حنَق(١) الملك عليه ويقول : ألك رب غيري ؟! فيقول ربي وربك الله وهنا تشتد ثائرة الملك فيعذبه ، وتتوالى العقد و تتأزم الأمور

---

(١) أى غيظ وغضب الملك عليه

حين يدل جليس الملك علي الغلام ، ويعذّب الغلام حتى يدل علي الراهب الذي يشق جسده بالمنشار كما شق جسد جليس الملك . ثم جيء بالغلام الذي دفعه الملك إلي رجال حاشيته ليلقوا به من فوق أعلي قمم الجبال ، ولكن الجبل رجف بهم فجاء إلي الملك يمشي ولم يصب بأذى .وهل وقف كيد الملك بالغلام إلى هذا الحد ؟ لا . ولكنه عهد به إلى أتباعه أن يحملوه في سفينة حتى إذا توسط البحر الغريق ألقوه بها ، ولكن الله كتب له النجاة ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا إلا الغلام الذي جاء يمشي مرة أخري إلى الملك ، وتكون المحاورة بين الملك و الغلام حين يشير الغلام على الملك ويرسم له خطة قتله بأن يجمع الناس في صعيد واحد و يصلبه على جذع ثم يأخذ سهماً من جعبة الغلام و يرميه بها و هو يقول .: بسم الله رب الغلام . و ينفذ الملك خطة الغلام و يقول بسم الله رب الغلام حين يصوب إليه السهم فيموت الغلام .

إلى هنا تنتهي هذه المرحلة المشحونة بالأحداث و العقد ، غير أن القصة لم تنته بعد ولكن. نهاية القصة تؤول إلى إيمان الناس جميعاً بالله رب العالمين ، مرددين صيحات الإيمان بالله : آمنا برب الغلام ، و يقبل الناس على

الإيمان بالله ، على الرغم من إضرام الملك النيران المتأججة يلقي فيها المؤمنين الذين آمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض و الله على كل شيء شهيد .

وتختتم نهاية القصة بإلقاء المرأة وليدها في النار بعد أن حاولت أن تتقاعس . بيد أن الله انطق الوليد - وكان في المهد - فانطلق صائحاً يشجع أمه أن تلقي بنفسها في النار من أجل أن تثبت على الإيمان قائلا :" يا أمه اصبري فأنك على الحق " . وهكذا - تختتم القصة فتكون النهاية بمثابة النتائج للمقدمات وسبباً لها مما جعلها حافلة بعناصر التشويق والإثارة وجذب المتلقين لها .

٢-أهداف القصة النبوية

وإذا تقرر أن القصة عند الجاهليين كانت سجلاً لأيامهم و وقائعهم ، و معرضاً لمفاخرهم ، و مرآة لمواقفهم ، و مسلاة في منتدياتهم ، و أداة لسمرهم في محافلهم . فإن القصة في الأدب النبوي وسيلة من وسائل الدعوة إلى الإسلام ،فهي تقرر العقيدة ، و تبسط الفكرة ، وتشرح المبدأ ، و توضح الطريق ، و تفسر القرآن ، و تحذر من الشر ، و تدعو إلى الخير. و تتميز بالصدق

و شرف الغاية ، و نبل المقصد ، وكـرم الأسـلوب ، مـع حسـن العرض و دقـة التصويـر ، و روعـة الأداء ، علـى نحـو مـا سنبينه في بعض النماذج القصصية النبويـة الآتيـة :

نماذج من القصص النبوي

و من أوضح ما تتضح فيه هـذه الأهـداف تلـك القصـة ، التي أخرجتها صحاح كتب السـنة و هـي :

١ـ · قصة أصحاب الغار ·

و مؤداها أن ثلاثة مسافرين جمعـت بينـهم فـي سـفرهم وحدة الطريق ، و قد أمضى أولئـك الثلاثـة فـي طريقـهم إلـى الغاية التي يبتغون الوصول إليـها ، آخذيـن بـأطراف الأحـاديث بينهم ، يستعينون بها على مشـقة السـفر ووحشـة الطريـق ، وما زالوا على ذلك حتـى أفضـى بـهم المسـير إلـى صحـراء مجهولة المعالـم ، فجعـلوا يسـيرون تـائهـين ، تضمرهـم الأوديـة و تظـهرهم التـلال ، و فيمـا هـم علـى ذلـك إذ العواصف تـزأر ، و السـحب تتراكـم ، و الرعـود تكـاد تصم الآذان و البروق تكاد تخطف الأبصـار ،و السـماء تـهطل بالأمطار ، ثم إذا هم على ذلك نّـهبى بـرد قـارص ، و حيـارى ظلام دامس و فريسة هم مقيـم . وعلـى غـير المتوقـع منـهم

لاح لهم من خلال البرق جبل فولوا وجوههم شطره ، فلما بلغوه ، رأوا في أحضانه غار ظنوا أن فيه أمن لهم مما هم فيه ، فألقوا أنفسهم في جوفه إلقاء من لا يبالي السباع الضارية ، و لا الهوام و الحشرات الفاتكة ، حتى إذا اطمأن بهم مجلسهم و ذهب عنهم روعهم . رجفت الأرض رجفة زلت بها عن الجبل صخرة سدت فم الغار عليهم ، فلم يجدوا وسيلة للنجاة مما هم فيه من بلاء ، إلا أن يفزعوا إلى الله يرجنوه بكل ما في صدورهم من إيمان ، و يتوسلوا بكل ما في حياتهم من صالح الأعمال . حتى يكشف الله عنهم البلاء ثقة بقول الله تعالى ووعده : "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و ابتغوا إليه الوسيلة ". (١) فما إن طافت الخاطرة بأذهانهم حتى أجمعوا أمرهم على أن يتوسلوا إلى الله بما قدموا من صالح الأعمال ، لعل الله يستجيب لهم ، فيكشف عنهم ما لا نجاة منه إلا برحمة من الله و رضوان .

و تبدأ القصة – كما رواها البخاري في صحيحه – على الوجه التالي :- يقول البخاري : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري ، حدثني سالم بن عبد الله أن عبد

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٥

الله بن عمر – رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه و سلم – يقول : " انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليه الغار فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم . فقال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران و كنت لا أغبق (٢) قبلهما أهلاً و لا مالاً ، فنأي بي في طلب شيء قوماً فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت غبوقها ، فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبثت و القدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج . – قال النبي ﷺ- : و قال الآخر : اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إليّ فأردتها عن نفسها فامتنعت مني ، حتى ألمّت بها سنة من السنين (٣) ، فجائتني فأعطيتها عشرين مائة دينار على أن تخلي بيني و بين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت لا أحل لك

---

(١) الغبوق = مشرب اللبن وقت العشى . والمراد بالأهل : الزوجة والولد ، وبالمال : الرقيق والخدم

(٢) يريد أنها أتت عليها سنت جدباء فأصابها الفقر والحاجة .

أن تفضي الخاتم إلا بحقه ، فتحرجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها و هي أحب الناس إليّ ، و تركت الذهب الذي أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه ، انفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . قال النبي صلى الله عليه و سلم : و قال الثالث : اللهم أني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له و ذهب ، فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين و قال يا عبد الله أدّ إليّ أجري ، فقلت له : كل ما تري من أجلك من الإبل و البقر والغنم و الرقيق ، فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بي . فقلت : أني لا استهزئ بك ، فأخذه كله ، فاستاقه و لم يترك منه شيئا . اللهم فإن إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون " (١)

و من هذه النماذج من القصص الشريف تلك القصة الآتية :

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى صـ ٤ صـ ٥٢٥ ، صـ ٥٢٦ دار الريان للتراث المطبعة السلطيه الطبعة الثالثة سنه ١٤٠٧ هـ صـ ١٩٨٧م تحقيق وإخراج كل من : محب الدين الخطيب ، محمد فؤاد عبد الباقى قصى محب الدين الخطيب وصحيح مسلم بشرح النووى صـ ١٧ صـ ٥٥ وما بعدها المجلد ٦ طبع دار الريان للتراث ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ ط ١

٢- ٠ قصة الأبرص و الأقرع و الأعمى ٠

و قد أخرجت هذه القصة - أيضاً - كتب الصحاح ، وأخرجها مسلم في صحيحه على الوجه التالي : " يقول الإمام مسلم : " حدثنا شيبان بن فروّخ ، حدثنا همام ، حدثنا إسحاق بن عبد الله عن أبي طلحة ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي عمرة ، أن أبي هريرة حدثه : أنه سمع النبي -صلى الله عليه و سلم - يقول : أن ثلاثة في بني إسرائيل : أبرص و أقرع و أعمى . فأراد الله أن يبتليهم فبعث الله إليهم ملكاً فأتي الأبرص فقال أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن و جلد حسن ، و يذهب عني الذي قد قذرني الناس من أجله - قال فمسحه _ ، فذهب عنه قذره أعطى لونا حسنا و جلد اً حسناً . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال :الإبل فأعطاه ناقة عشراء . (٢) فقال : بارك الله لك فيها قال : فأتي - أي الملك - الأقرع فسأله :أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، و يذهب عني هذا الذي قذرني الناس . فمسوه ، فذهب عنه قرعه و أعطاه شعر حسناً. قال : أي المال أحب إليك ؟ قال : البقر فأعطاه بقرة حاملاً قائلاً له :

---

(١) الناقة العشراء = هي التي أتى على حملها عشرة أشهر

إليك ؟ قال : البقر فأعطاه بقرة حاملاً قائلاً له : خذها بارك الله لك فيها .

ثم أتي الأعمى فقال : أي شيء احب إليك قال : أن يرد الله إليّ بصري فأبصره الناس ، فمسحه فرد الله إليه بصره ، ثم سأله الملك : أي المال أحب إليك قال : الغنم فأعطاه شاة والداً . (١)

فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، و هذا واد من الغنم . ثم أنه أتي الأبرص في صورته و هيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم الا بالله ثم بك . (٢)

أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن ،و الجلد الحسن ، و المال –أسألك – بعيراً أبتلغ عليه في سفري . فقال : الحقوق كثيرة . فقال له : كأني أعرفك . ألم تكن أبرص يقذرك الناس ؟ فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً

---

(١) أي ولودا عرفت بكثرة النتاج

(٢) أي فقير معدم ليس لي ما أبلغ به غايتي من السفر وليس عندي ما يوصلني إلى مقصدي إلا بمعونة من الله ثم منك

عن كابر [٣] فقال الملك : إن كنت كاذباً فيسيرك الله إلى ما كنت .

و أتي الأقرع [٤] في صورته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد على هذا كنت كاذباً فيسيرك الله إلى ما كنت . فأتي الأعمى في صورته و هيئته فقال : رجل مسكين ، وابن سبيل انقطعت بي الحال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك . أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أبتلغ بها في سفري . فقال : قد كنت أعمى فرد الله إليّ بصري فخذ ما شئت و دع ما شئت ، فو الله لا أجهدك [٥] اليوم شيء أخذته لله فقال-أي الملك – أمسك عليك مالك . فإنما ابتليتم ، فرضى الله عنك و سخط على صاحبيك " [٦]

فهاتان القصتان قد وضحتا بجلاء الهدف الذي كان يرمي إليه الرسول من إيرادها ، وهو أن الإنسان إذا ركب هواه ورفع نفسه فوق قدره – استطالةً على الناس – و لم يحسن إلى الوالدين و ذوي قرباه و لم ولم يرع محارم الله

---

(٣) أى ورثت هذا المال عن أبائى وأجدادى .

(٤) أى جاء الملك إلى الأقرع فى فى صورة رجل أقرع ، كما أتى الأبرص والأعمى على صورة كل منهما .

(٥) أى لا أمنعك شيئا ، ولا أمتن عليك بشئ

(٦) صحيح مسلم بشرح النووى صـ ١٨ صـ ٩٧ وما بعدها المجلد السادس طبع دار الريان للتراث سنة ١٩٨٧م

وحرمات الناس ، و لم يعد عليهم من فضل الله بما أفاء الله به عليه ، فإن ذلك يفضي به إلى سخط الله و عقوبته و ربما أفقده ذلك شرف دنياه و سعادة أخراه . كما تشيران إلى عناية الرسول ٠- صلى الله عليه و سلم- - البالغة بتربية المجتمع تربية قوية وبنائه بناء اً قوياً متماسكاً ، قوامه الطهارة والعفة ، والكف عن الحرمات و مراعاة حرمة الغير ، وأداة الأمانة ، والسماحة في المعاملة ، واحترام حقوق الناس أجمعين خاصة الأقربين منهم حتى يكون المجتمع كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى و السهر ، مجتمع دعائمه التكافل و التضامن ، و أساسه التواد و التراحم .

الخلاصة . أن مقاصد القصص النبوي و غاياته و أهدافه ، إنما هي الدعوة إلى الحق و الهداية إلى مواقع الخير ، و اقامة وجه الإنسانية على مسالك الهدى و الرشاد و البعد بها عن طريق الغواية و الفساد ، و الميل بها عن مآرب الضلال و البوار ، فليس في القصص النبوي ما في غيرة من القصص من تلك المواقف و الصور التي يراد منها استثارة العواطف المريضة ، واسترضاء الميول المنحرفة في الإنسانية و تعلقه بها ، و انقياده لها و إنما القصص

النبوي حرب على هذه العواطف المريضة ، وتلك الميول المنحرفة ، ليصل بالنفس الإنسانية إلى مدارج الكمال والجمال ، حتى تستحق خلافة الله في أرضه . تلك الخلافة التي باهى بها الله ملائكته حين قال لهم : " إني جاعل في الأرض خليفة " (١) .

و هكذا يتجلى الهدف من القصص من أدب النبي محمد ﷺ قصص يدعو إلى الفضيلة ، و يدعو إلى الخير ، و يحث على فعل كل ما فيه سعادة للبشرية في الدنيا و الآخرة .

٣- السمات الفنية للقصة النبوية

ما من شك في أن العمل الأدبي : قصيدة أو مسرحية أو قصة أو أقصوصة أو مقالاً ، إنما يكون في روعة أسلوبه و حلاوة جرسه ، و تخير ألفاظه بحيث تكون ملائمة للمعني موحية بالغرض ، وفي إبداع المعاني و توليدها ، وروعة الصورة الفنية ووضوحها . وقد حوت القصة النبوية تلك الخصائص الفنية مجتمعة ، التي جعلت منها مثلاً يحتذي لكل أديب : شاعر أم ناثراً . كما سيتضح

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠

من خلال حديثنا عن تلك السمات و الخصائص التي احتوتها القصة النبوية فيما يأتي :-

أ- انتقاء الألفاظ ذات الدلالة

من أبرز ما يحسه قارئ القصة النبوية الاستخدام الجيد للألفاظ بمختلف أنواعها ، سواء أكانت اسما أم فعلاً أم حرفاً و توظيف تلك الألفاظ بالشكل المناسب لتحقيق المعنى المراد . فهي تلجأ -مثلاً -إلى الفعل المضارع إذا أريد من أحداث القصة التجديد و الحدوث لتجعل القارئ و السامع مستحضراً ومعها الحركة كما في :

· قصة الذي يدور في النار·

إذ تأتي القصة هكذا : " يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق (١) أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : أي فلان مالك؟ ! ألم تكن تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر ، قال : بلا . قد كنت آمر بالمعروف و لا آتيه و أنهي عن المنكر و آتيه (٢) فقد استخدمت القصة أفعال المضارع : " يؤتى ،

---

(١) تندلق = تخرج ، وأقتابه = أمعاؤه . أى يخرج بإندفاع وشدة ما فى بطنه من أمعاء وحوايا

(٢) صحيح مسلم جـ١٨ صـ ١١٨

فيلقي ، فتندلق ، فيدور ، فيجتمع ، فيقولون " ذلك أن المقصود من إيراد القصة التحذير من الوقوع من مثل ما وقع فيه هذا الرجل المنافق ، و هذا يقتضي استحضار الصورة لتكون ماثلة في الأذهان ، و ليتذكر بهذا الموقف الرهيب تبدو صورته تمثل أمام متلقي القصة واقعاً ملموساً تتملاه العين مع الحس و الخيال ، فهذا الرجل لا يلقى في النار و ينتهي الأمر ولكن القصة باستخدامها الأفعال المضارعة استحضرت صورة مفصلة حوت أبعاد الموقف من زوايا متعددة ، فالرجل قد اندلقت أمعاؤه خارج بطنه ، و للقارئ أو السامع أن يتصور هيئته و قد خرجت أمعاؤه من بطنه من غير أن تنفصل عنه وليس هذا فحسب ولكن مع ذلك يدور بها في جهنم في حركة مستمرة تشبه حركة الحمار و قد أخذ يدور بالطاحونة ، وهي صورة مزرية شنيعة إلى حد كبير ، جعلت أهل النار مع ما هم فيه من عذاب شاغل و همّ مقيم يلتفتون إلى هذا الرجل المثير في حركته العجيبة ، و هو يدور بأمعائه كما يدور الحمار بالرحى . و بما أن الحديث في القصة الغرض منه تحقيق الوقوع وهو الإخبار عن مشاهد غيبية تقع يوم القيامة وهي لم تحدث بعد و إنما ستحدث في المستقبل ، فإنّا نجد الرسول

صلى الله عليه و سلم ، يستخدم الفعل الماضي في مجال السرد القصص ليعطي طابع التحقق الذي يتطلبه مجال القصة بوصفه أمر آ محقق الوقوع بكل تأكيد باعتبار ما سيكون ، كما في قوله ، ﷺ قال : كنت آمر بالمعروف " فالسياق يقتضي أن يقول " : كنت آمر بالمعروف ..... الخ " لأن الحديث عن أمر مستقبل لم يقع بعد ، ولكن لما كان الحدث سيقع لا محالة عدل عن المضارع إلى الماضي للتأكيد و التحقيق و يقع الحدث فعلاً .

كذلك نجحت القصة النبوية في استخدام ألفاظ معينة استعملتها كروابط للتحقيق المشاركة و التلاحم بين أجزاء القصة و مراحلها ، مثل " إذا " الفجائية التي تعطي دلالة فنية رائعة ، من حيث نقل حقيقة الحدث ، في كونه حدث بعد يأس ، و دون ترقب ، كما رأينا في قصة " المستلف ألف دينار [1] " و كـ "إذا " الشرطية التي تنشئ علاقة حميمة بين التمهيد و بين الحدث القصصي ، فهي تربط بين الشرط الذي يأتي تمهيداً للقصة و بين الجواب الذي هو بداية الحدث . و مثل " إذ " و "بينما" فهي تستعمل في الأسلوب بطريقة

---

(١) انظر صـ ٢٥ وما بعدها

تحقق الانسجام في العرض حين الانتقال من حدث إلى حدث آخر تولد عن الحدث الأول ، كما مر بنا في قصة " أصحاب الأخدود" [٢] عند قوله ﷺ" فبينما هو على ذلك إذ أتي على دابة عظيمة" .

ومثل إذا كذلك " لماّ " كما رأينا في قصة الكفل " فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته " حيث قامت " لما " بعملية ربط محكم بين البداية و الوسط . كذلك نجحت القصة النبوية في وضع اللفظة أو العبارة في سياقها الملائم لها حسب ما يقتضيه المقام ، كالذي نجده في :

·قصة إبراهيم و آزر·

فالمقام فيها اقتضى استخدام الألفاظ المستكرهة الموحية بالبشاعة و التقزز ، ذلك أن القصة بصدد غرض صورة لذلك الكافر " آزر " الذي ضرب صفحاً عن دعوة ابنه و هو يلح عليها في أن يستجيب لنداء الحق و الانضواء تحت لواء الإيمان ولكنه أبي . وعن هذه القصة جاء قوله النبي صلى الله عليه و سلم " يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة و على وجه آزر قترة و غبرة ، فيقول له إبراهيم ألم

---

(٢) أنظر صـ٢٩ وما بعدها

أقل لك لا تعصني ؟ . فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب أنك وعدتني أن لا تخذني يوم يبعثون . فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ، فيقول الله أني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار " (١)

فألفاظ " قترة ، غبرة ، زيخ ،متلطخ " كلها ألفاظ تشبع في النفس إحساساً بالتنفير من هذا البائس الخاسر الذي يستتبعه تنفير من موقفه في الحياة من رفض الإيمان و الاستجابة للدعوة . و المتأمل في القصة النبوية يتبين له أن الألفاظ فيها تبدو في صورة سهلة بعيدة عن البهرجة اللفظية أو الحسنات البديعية التي لا طائل تحتها أو التي تنقلب عبئاً على القصة و موضوعها . و لذلك نجد أن المعنى يقدم لنا في يسر و سهولة و وضوح ، دون تعقيد أو غرابة يتطلبان منا جهداً في الفهم أو سعياً وراء المعنى المراد من القصة أو بعض ألفاظها . و عبارات القصة النبوية و سائر تراكيبها قصيرة موجزة تتجلى في نظم

---

(١) البخارى جـ٤ صـ١٦٩ والذيخ = الذكر من الضباع انظر لسان العرب لأبن منظور صـ ١٥٢٨ طبع دار المعارف مادة " ذبح " وخبه يقول : الذبح = ذكر الضباع ، وفى حديث القيامة : وينظر الخليل عليه السلام عليه السلام إلى أبيه فإذا هو بذبح متطلخ ، وأراد برجيعه أو بالطين ، كما قال فى الحديث الآخر : يذبح أمعداه أى متلطخ بالمدر

متماسك جيد الفصل و الوصل خـــال مـــن أي نـــوع مـــن أنـــواع التعقيد بالتقديم أو التأخير بحيـــث يسترســـل القـــارئ أو الســـامع مع القصة في متابعة جيـــدة لا يشـــعر خلالـــها بـــأدنى عنـــاء أو تعثر. كما أن الألفاظ بدلالاتها و بمـــا تشـــعه هـــذه الـــدلالات مـــن إيحاءات خاصـــة هـــي المكونـــات الأصليـــة للصـــورة ، فالألفـــاظ تتآلف و تتلاحم من أجل خلق الصـــورة المفصلـــة بمـــا تحويـــه من أبعاد و زوايـــا .

والخلاصة أن الألفاظ في القصـــة النبويـــة قـــد اســـتخدمت ببراعة في تكوين الصورة و وظفـــت فـــي هـــذا المضمـــار علـــى نطاق واسع كما وضحنا ذلك جلياً في قصة " الـــذي يـــدور فـــي النـــار " .

أما أسلوب القصة النبوية مـــن خـــلال مـــا عشـــناه معـــها فقـــد تميـــز بالسهـــولة و الوضـــوح . ســـهولة زاخـــرة بالحيـــوية و القوة التي تجعلـــه أكـــثر تـــأثيراً و جاذبيـــة نظـــراً لما يتمتع بها تنويع فى الصياغة و وروعة التعبـــير حســـب مـــا يتطلبه عرض القضايا أو العلاقـــات الموضوعيـــة التـــي تتناولـــها القصة من غير تعقيد ولا التواء و لا معـــاظـــلة فـــي الـــتراكيب ولا حشو في التعبير ، كما أن الألفـــاظ جـــاءت مواكبـــة موائمـــة

لمعانيها أتم المواءمة ، كما تبين ذلك واضحاً من خلال ما قدمناه من نماذج .

ب- تنوع الأسلوب بين الحوار و السرد

إذا كان الهيكل العام للقصة متمثل في البداية و الوسط والنهاية ، يشكل المضمون أو الفكرة أو المعنى – و هو ما يسمى بالقيمة الشعورية – فإن السرد و الحوار هما اللذان يعبران عن هذه القيمة ، التي تظل مضمرة في النفس حتى يبرزها القاص في صورة تعبيرية بواسطة أسلوبي الحوار و السرد .

ومن هنا فالحوار والسرد هما الأداة التي بواسطتها يعبر القاص عن الأحداث و الأفكار التي تحتويها القصة ،كما يستطيع بواسطتهما أن ينقل إحساسه المضمر في نفسه إلى المتلقي قارئاً أو مستمعاً و قد تنوع الأسلوب القصصي في بيان رسول الله ﷺ، فقد جمع بين الأسلوب السردي والأسلوب الحواري .

١- الأسلوب السردي

و المقصود بالسرد : الطريقة التي يتبعها القاص في التعبير عن الحوادث و الأشخاص بمعنى سرد الأحداث التي تتضمنها القصة ، و الإخبار عنها ، و وصف مشاهدها ، و الأحاديث التي تجري على ألسنة أبطالها ، و وصف ما يراه هؤلاء الأبطال و يشاهدونه أو يشعرون بها .

و السرد في القصص – بعامة- يأتي على كل طرف ثلاث .

١-طريقة الحكاية المباشرة . و ذلك أن يروي القاص أحداث القصة و يحكيها كما لو كان شاهد عيان فهو يحكي حادثة وقعت أمامه ، أو سمع عنها ، دون أن يتدخل في وقائعها . و يكون شأنه هنا شأن المؤرخ الذي يحكي الأخبار من الخارج دون أن يشترك في الأحداث ، أو يتقمص شخصية بطل من الأبطال .

٢-طريقة السرد الذاتي : و فيها يتحدث القاص على لسان المتكلم ، و هو بذلك يدمج نفسه في شخصية بطل القصة، و يجعل من نفسه وأحد الشخصيات شخصية واحدة ، فيتكلم هو نيابة عنها ، و بذلك يقدم ترجمة ذاتية

خيالية ، لأنه يتحدث كما لو كان الحدث وقع عليه ،و كما لو كان يقص شيء حصل له هو . أي يتكلم كما لو كان يتكلم عن ذاتيتة و يحكي عن نفسه .

٣-طريقة اليوميات و الوثائق : و فيها تتحقق القصة عن طريق مذكرة أو يومية يكتبها بطل القصة و يصور فيها الأحداث التي اعترضت حياته ، أو يوضح فيها حركات نفسه و خلجات فكره و أسرار تصرفاته و دوافع أعماله . و هذه الطريقة لا تختلف كثيراً عن الطريقة الثانية . " طريقة السرد الذاتي " لأن القاص في كل منها يتدخل في أحداث القصة (١)

و السؤال الآن : أين السرد في القصة النبوية من هذه الطوق ؟

و في معرض الإجابة عن هذا التساؤل نقول : إن السرد في القصة النبوية إنما جاء على الطريقة الأولى ، طريقة الحكاية المباشرة . ذلك أن القصة في الأدب النبوي تعني أول ما تعني بالحدث قبل عنايتها بالأشخاص ، فالحدث

---

(١) انظر " في النقد الأدبي الحديث " د/ محمد عبد الرحمن شعيب صـ ٣٨٩ مطبعة دار التأليف بالمالية بمصر ١٩٦٨ الطبعة الأولى .

في القصة النبوية يأتي في المرتبة الأولى لأنه الأساس فيها ، إذ الحدث يقصد أولاً ، أما الأشخاص فيجرون في القصة مع الأحداث ، فالمهم في القصة النبوية الأحداث و ما تتشعب إليه ، بحيث تجيء مشوقة للمتلقي ، كي تدفعه إلى متابعتها ، و لذا فقد اعتمدت القصة النبوية على الأحداث المثيرة و الحبكة المعقدة المتقنة الناشئة من تشابك الأحداث و تأزم المواقف كما مر بنا في النماذج التي تقدمت من مثل قصة "أصحاب الأخدود " . حيث سرد الرسول ﷺ أحداثها سرداً تجلى فيه تسلسل الأحداث و تتابعها تتابعاً متلاحقاً على النحو الآتي : -

١- الساحر يطلب من الملك غلاماً يعلمه السحر ليكون خليفة له

٢ - في الطريق يلتقي الغلام بالراهب و يتأثر به

٣- الساحر يضرب العلام .

٤-الغلام يشكو أمر ضربه للراهب .

٥ - الراهب يقترح عليه حل المشكلة .

٦- خروج الدابة و ضربها من قبل الغلام .

٧- اشتهار أمر الغلام و علاجـــه للنـــاس .

٨- شفاء جليـــس الملـــك و إيمانـــه .

٩- علم الملك بـــالغلام

١٠-إحضار الراهب و مثوله أمـــام الملـــك .

١١- الملك يعـــدم الراهـــب و جليســـه .

١٢- إرهاب الغـــلام و تعذيبـــه و محاولـــة إرجاعـــه عـــن دينه .

١٣- فشل محاولات الملك في قتـــل الغـــلام .

١٤- اقتراح الغلام علي الملـــك أن يصلبـــه .

١٥- إيمان الناس بعد صلب الغـــلام و قتلـــه .

١٦- غضب الملك على النـــاس و إضـــرام النـــار لإحـــراق المؤمنين منـــهم .

١٧- نطق الصبي في المـــهد و قولـــه لأمـــه : " يـــا أمـــه اصبري فإنك على الحـــق " .

و كما في قصة" إبراهيـــم و ســـارة و الملـــك " فقـــد جـــاء سرد الأحداث فيها ســـرداً مشـــوقاً و منطقيـــاً بحيـــث يســـلم كـــل

حدث فيها إلى الذي يليه ، و بحيث جاء الحدث الثاني نتيجة للحدث الأول ، كما بدا فيها تولد الأحداث و تناسقها و تتابعها بصورة جعلت المتلقي متطلعاً إلى النهاية التي ستسفر عن الأحداث مجتمعة حيث بدأ الرسول ﷺ يسرد علينا أحداثها على النحو التالي : فإنه قدم – أي إبراهيم – أرض جبار و معه سارة و كانت أحسن الناس . فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم إنك امرأتي يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختي ، في الإسلام ، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري و غيرك ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار أتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك فأرسل إليها ، فأوتي بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليها – أي على الملك – لم يتمالك أن بسط يده إليها ، فقبضت يده قبضة (١) شديدة ، فقال لها :ادعي الله أن يطلق يدي و لا أضرك، ففعلت ، فعاد، فقبضت ، أشد من القبضة الأولي فقال لها مثل ذلك ففعلت ، فعاد ، قبضت أشد من القبضتين الأوليين فقال ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك ، ففعلت ، و أطلقت يده ، و دعا الذي جاء بها ، فقال له : إنك إنما أتيتني بشيطان و لم تأتني بانسان ، فأخرجها من ارضي و أعطها

(١) قبضت يده : انكمشت وجمعت أصابعها إلى كفها

تأتني بإنسان ، فأخرجها من ارضي و أعطها هاجر . قال فأقبلت تمشي ، فلما رآها إبراهيم عليه السلام ، انصرف ، فقال لها : مَهْيم [١] ؟ قالت : خيراً ، كفّ الله يد الفاجر وأخدم خادماً ".[٢]

فقد سار السرد في القصة عن طريق الحكاية المباشرة ، دون أن يتدخل الرسول صلى الله عليه و سلم في أحداثها ، و إنما كان شأنه فيها شأن المؤرخ الذي يحكي لك حادثة وقعت دون أن يشارك في وقائعها ، و قد حرص الرسول ﷺ على ترابط الأحداث من الداخل ، بحيث أدي هذا الترابط إلى وحدة في الأثر لدى المتلقي بصورة قوية و مركزة من خلال تطور الأحداث كما جاء كل حدث من أحداث القصة في مكانه ، ونما و تكامل في الوقت المناسب . فإبراهيم _ عليه السلام – يدخل قرية الملك الجبار ، و معه زوجته سارة التي كانت على درجة كبيرة من الحسن و الجمال ، فيخاف عليها إبراهيم من الملك ، و هو يعلم أن الملوك هم أصحاب المال و السلطان مما يتيح فرصة الظلم و الطغيان ، فينبهها إلى أمر كثيراً ما يقع من هؤلاء ، و هو

---

(١) أى ما شأنك وماخبرك

(٢) صحيح مسلم جـ ١٤ صـ ١٢٣ صـ١٢٥

الاعتداء على الأعـراض و يحـدث مـا يتوقعـه إبراهيـم عليـه السلام حين طار خبرهـا إلـى الملـك ، فأرسـل بعـض أعوانـه ليأتوه بها ظلماً و عدواناً ولكن الله كـان نصـيراً لـها ، فمنعـه أن يمسها بسوء ، بل أعطاهـا هـاجر خادمـة لـها ، لمـا رأى منها من كرامـات .

وهكذا جاء سـرد الرسـول ﷺ متشـابك الأحـداث متـأزم المواقف مترابط الأجزاء ، فكل جـزء مـن الحـدث يـؤدي إلـى الجـزء الـذي يلـيه في إتقـان و إحكـام، و بشـكل متنـقل و سريع ، يمـوج بالحركـة ، و يحفـل بالنشـاط فـي مشـاهد حيـوية و صور متحركـة . و لا شـك أن الحـركة بتلوينـها وتنويعها هي الروح الـذي يسري فـي كيـان العمـل القصصـي ويبعث فيه الحياة ، و يجـعل بينـه و بيـن النـاس تجـاذباً و تجاوباً ، و تشوقاً إلى النهـاية التـي تنتـهي إليـها أحـداث القصـة . (٣)

---

(١) كما رأينا في قصة " المستلف ألف دينار " وقصة " الكفل " وقصة " أصحاب الغار" وقصة "" الأبرص والأقرع والأعمى " وغيرها .

" و إنه بغـــير الحركـــة ، و الحركـــة المتنوعـــة الملونـــة يفقد العمل القصصي حيويته ، ثم حياتـــه و يتحـــول إلـــى كتلـــة جامدة باردة من الكلمـــات " . (١)

٣-أسلوب الحوار

الحوار هو الروح فـــي كيـــان العمـــل القصصـــي ، و هـــو عنصر هام ، و جانب حيـــوي فـــي بنـــاء القصـــة الفنـــي . إنـــه المحور الذي يدور حولـــه العمـــل القصصـــي ، و مركـــز الدائـــرة التي يعتمـــد عليه في خلق الحركـــة و تلوينهـــا و تنويعـــها ، " و التلـــوين و التنـــويع في الحركة ممـــا يعطـــي الحـــوار جمـــالاً و حسناً مجدداً لا يمله المتلقي و لا تزهـــد فيـــه النفـــس " (٢)

و الحركة في الحوار أعـــم مـــن أن تكـــون حركـــة ماديـــة ينتقل بها أشخاص القصة مـــن مكـــان إلـــى مكـــان ، أو تختفـــي الشخصية لتحل مكانها أخرى ، و إنما الحركة هنـــا تشـــمل ذلـــك الانتقال المادي في حركات الأحداث و الأمكنـــة و الأزمنـــة ، كمـــا

---

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه " للأستاذ عبد الكريم الخطيب صـ ١٢١ مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٦٤م

(٢) المرجع السابق صـ ١٢٥

تشمل الخواطر و الأفكار و العواطف و غيرها ، مما يتصل بالحياة الإنسانية ، في مادتها و معنوياتها جميعاً . فهناك حركات ذهنية تتصارع فيها الخواطر و الأفكار في حركات سريعة مطلقة من قيود الزمان و المكان ، و هناك كذلك حركات نفسية تغلي فيها العواطف و تفور ، دون أن تصطدم بحاجز من حواجز الأمكنة و الأزمنة .

وتأتي أهمية الحوار من حيث أنه أسلوب مهم في بناء الشخصية في القصة ، ففيه تتبادل الشخصيات مواقفها ، و تغير أماكنها ، و تبدل أحوالها و أشكالها .

وأهمية الحوار أيضا تأتي من أن القصة في الأصل عملية سردية ، يقص فيها القاص الأحداث و المواقف بطريقة سردية رتيبة ، ومن أجل أن لا تبدو هذه الرتابة بصورة مملة ، فإن القاص الماهر يلجأ الى استعمال أساليب الحوار ن لإعطاء السرد نوعاً من الحيوية و الإثارة ، حتى أن تستطيع القصة أن تشد المتلقي و تحمله على المتابعة المستمرة ، لأن المتلقي حينئذ سيجد في الحوار تشوقاً ومتعة ، و يثير في نفسه مختلف العواطف و الانفعالات .

كما أن الحوار سيلبي لديه حاجته النفسية في حبّ المعرفة النابعة من حبّه لاستطلاع معنى الحوار و أبعاده ، و ما يترتب على الحوار من مواقف و ما يخلفه من أحداث . و من هنا فإن الحوار ينتشر في القصة انتشاراً واسعاً ، و بصورة إيجابية ذات أثر واضح في تدعيم البنية القصصية ، و خدمة الجانب الفني ، كما أنه يأتي في صورة طبيعية ، بمعنى أنه لا يقحم على السياق ، و لا يفرض عليه فرضا و إنما يأتي تلقائياً ، و بدون تكلف ، حسب ما يقتضيه الموقف ، و يتطلبه السياق .

والحوار في القصة النبوية يتسم بالقصر و هو القصر العام الذي تتسم به القصة النبوية بصورة عامة ، كما يتميز بالسرعة بمعنى أن المتحاورين لا يطنبان أثناء الحوار . إلا أنه مع قصره و سرعته دالّ و معبر عن الموقف ، و عن الغرض الذي من أجله سيق ، بحيث يأتي رد المحاور على محاوره في الحدود التي يقتضيها السؤال ، من غير اضطراب أو قصور يخل بطبيعة الحوار ، و من غير حشو يفسده و يذهب بصورته الحيوية الممتعة .

كما أن الحوار في القصة النبوية ذو علاقة وثيقة بالسرد ، حيث يحس المتلقي بحضور القاص يحكي أثناء سرده للقصة مقولات المتحاورين ينقلها بلفظ " قال " أو " قالوا " أو ما شابه ذلك (١).

هذا . وقد تنوعت صور الحوار في القصص النبوي على النحو الآتي :-

١- حوار بين اثنين . كالحوار الذي دار بين الملك و الرجل في القصة الآتية :- فيما رواه مسلم و غيره :" عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى ، فأرصد الله له على مدرجته ملكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية ، قال هل لك عليه من نعمة تربّها (٢) ؟ قال : لا غير أني أحببته في الله عز وجل ، قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه " (٣)

---

(١) أنظر فن القص في القرآن الكريم للأستاذ / محمد أحمد خلف الله صـ ٣٠٣ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٢

(٢) تربها أي تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك .

(٣) صحيح مسلم جـ ١٦ صـ ١٢١

و كما في حـوار إبراهيـم – عليـه السـلام – و زوجتـه ابنه إسماعيل – عليه السلام – حين جاء يسأل عنـه فلـم يجـد " فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنـا ، ثـم سـألها عـن عيشـهم و هيئتهـم ، فقالت : نحن بشـر ، نحـن فـي ضيـق وشدة ، فشكت إليه . قـال : فـإذا جـاء زوجـك فـأقرئي عليـه السلام و قولي له يغير عتبـة داره "

ثم ينشأ حوار دفع إليه الموقف . و هـو حـوار دار بيـن إسماعيل و زوجته علـى الوجـه التـالي :- تقـول القصـه فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شـيئاً ، فقـال : هـل جـاءكم أحد ؟ قالت : نعم . جاءنا شـيخ كـذا و كـذا ، فسـألنا عنـا فأخبرته : أنا في جهد و شدة ، قال : و هـل أوصـاك بشـي قالت : أمرني أن أقرأ عليـك السـلام ، و يقـول غـير عتبة بابك . قـال : ذاك ، أبـي ، قـد أمرنـي أن أفـارقك ، ألحق بـأهلك "(١)

٢- حوار بين واحد من طرف و جماعة من طرف أخر . و ذ كالحوار الذي تم بين الله و ملائكته في قصة " الملائكة الذي

---

(١) أنظر القصة كاملة في البخاري جـ ٤ صـ ١٧٥

يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر " حين يسألهم ربهم – و هو العالم بهم – فيقول لهم : " ما يقول عبادي ؟(٢)

قالوا : يقولون : يسبحونك و يكبرونك ، و يحمدونك ، قال : ، فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا و الله ما رأوك ، قال : فيقول و كيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، و أشد لك تمجيدا ، و أكثر لك تسبيحاً ، قال : يقول : فما يسألوني ؟ قال يسألونك الجنة ،قال : يقول : هل رأوها ؟ قال: يقولون : لا والله يا رب ما رأوها ، قال : يقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا ،وأشد لها طلبا ، وأعظم فيها رغبة ، قال : فمم يتعوذون ؟ قال: يقولون من النار ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون:لا ، والله ما رأوها قال :يقولون : لا ، والله ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ :يقول : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا ، وأشد لها مخافة ، قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم . قال : يقول

---

(٢) القصة في البخاري صـ ٨ ، صـ ١٠٧ ، صـ ١٠٨ الحديث رقم ٥٩٢٩ كتاب الدعوات مرفوعا إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم ما يقول عبادي ؟...الخ والحديث رواه – أيضا – مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار صـ١٧ صـ ١٤ صـ ١٥ ومسند الإمام أحمد كتاب باقي مسند المكثرين رقم ٧١١٧.

ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة قال : هم الجلساء لا يشقي بهم جليسهم " .

وكحوار الملك مع الأقرع و الأبرص و الأعمى حين سألهم عن أحب شيء إليهم .(١)

٣- حوار بين جماعة وجماعة ، كالذي نجده في المحاورة التي جرت بين ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، في قصة الرجل التائب ، الذي كان قد قتل مائة . تقول القصة كما يرويها الإمام مسلم بسندها عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال : "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا (٢) " ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل علي راهب فأتاه ، فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل علي رجل عالم ، فقال: إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟. فقال: نعم . ومن يحول بينه وبين التوبة ، انطلق إلي أرض كذا و كذا فإن بها أناساً يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلي أرضك ، فإنها أرض سوء فانطلق ، حتى إذا نصف

---

(١) صحيح مسلم جـ ١٨ ص٩٧

(٢) إتيان الرسول ﷺ بالتاء في تسعة مع أن النفس مؤنثة يدل على أن القتلى كانوا من الذكور.

الطريق أتـــاه المـــوت ، فـــاختصمت فيـــه ملائكـــة الرحمـــة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمـــة : جـــاء تائبـــاً مقبـــلاً بقلبه إلي الله . وقالت ملائكة العذاب : إنـــه لـــم يعمـــل خـــيراً قط . فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلـــوه بينـــهم ، فقـــالوا : قيسوا ما بين الأرضين فإذا أيتـــهما كـــان أدنـــى فـــهو لـــه ، فقاسوه فوجـــدوه أدنـــي إلـــي الأرض التـــي أراد ، فقبضتـــه ملائكة الرحمـــة "(١)

وكما يجيء الحوار في القصة النبويـــة مـــن خـــلال ســـرد أحداثها _ كما رأينا _ نراه في بعـــض القصـــص يـــأتي كمقدمـــة وتمهيد لسرد أحداث القصة . وذلك لإثـــارة المســـتمع أو القـــارئ وشد انتباهه وتوجيه تطلعه لاستقبال أحداثـــه ، كـــالذي ورد فـــي ما رواه البخاري ومسلم وغيرهم عـــن إمكـــان رؤيـــة الله تعـــالي يوم القيامة وذلك حين سال النـــاس رســـول الله صلـــي الله عليـــه وسلم " هل نرئ ربنا يوم القيامـــة ؟ قـــال : هـــل تمـــارون فـــي القمر ليلة البدر ليس دونه ســـحاب ؟ قـــالوا: لا يـــا رســـول الله !

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٧ صـ ٨٣ كتاب التوبة .

قال : فهل تمارون في الشمس ليس دونـــها ســحاب ؟ قــالا: لا :
قال : فإنكم ترونه كذلـــك " (١)

فالقصة من حيث مضمونها ومحتواها إجابـــة عــن ســؤال سأله الصحابة _ رضوان الله عليـــهم _ عــن إمكــان رؤيــة الله تعالي . وقد أدرك الرســـول ﷺ بثــاقب فكــره و رجاحــة عقلــه بأن سؤالهم هذا يوحي بأن هناك نوعاً من الاســـتبعاد يــدور فــي أذهانهم ، ويختلج في نفوسهم ، من حيث عـــدم تصــور الأذهــان لرؤية الله تعالي مـــن قبــل جميــع النــاس . ولكــن ﷺ قبــل أن يجيبهم بالقصة التي تضمـــن إمكــان رؤيــة المؤمنيــن لله يــوم القيامة، فمهد لذلك بما يحرك الذهن والنفـــس، ويقــرب القضيــة التي ســـتتناولها القصــة للتصــور والإدراك فيحــاورهم بأســئلة عن رؤيتهم للشمس والقمر ، وأنهم يمكنـــهم رؤيتـــهم لـــهما فـــي يسر وسهوله باعترافهم . والحوار كما يقـــرب الصــورة لأذهــان المستمعين ، فإنه في الوقت ذاته يشدهم إلـــي متابعــة القصــة ، ويسير في حثهم وشعورهم جذوة الشوق والتطلع لمـــا تــأتي بــه من أحداث ، وما تسفر عنه في النهايـــة مــن نتــائج . وهكــذا . أثرى الحوار القصة النبويـــة وبعــث فيــها النشــاط والحيويــة ،

---

(١) في مسلم جـ ٣ صـ ٣٤ : عن أبي سعيد الخدري أنه قال : " وقلنا يا رسول الله أنرى ربنا قال ﷺ هل تضارون في رؤية الشمس إذا كان يوم صحو ؟ قالوا لا قال : " فإنكم ترونه كذلك " ...الخ

الأمر الذي دفع بالمتلقي ليكون اشد انتباها لمتابعة أحداثها ، وأكثر تشوقا لنتائجها ، بحيث تثير دهشته واستغرابه ، وتبعث فيه التلهف لمعرفة ما يكمن وراءها ، وكشف ما تنطوي عليه من أسرار . مما يدل علي أصالة العنصر الحواري في القصص النبوي .

جـ_ الصورة الفنية في القصة النبوية

من أبرز ما يجلي الخصائص الفنية في القصة النبوية تصويرها للمشاهد والأحداث التي تتناولها . فد حفلت القصة النبوية بعروض حية لكثير من المشاهد ، وجسدت كثيراً من الأحداث ، فبعثت فيها الحركة والحياة ، بحيث تبدو وكأنها تمثل أمامنا واقعا ملموسا ، وتتملاه العين وتحسه الحواس . ولنأخذ مثلا علي ذلك قصة " الرجل الذي يدور في النار " ، وفيها يقول رسول الله ﷺ : "يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب [٢] بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون : يا فلان مالك ؟! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟!

---

(٢) الأقتاب الأمعاء

فيقول : بلى . قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهي عن المنكر وآتيه .(١)

فقد صور لنا رسول الله ﷺ الرجل ، وقد خرجت أمعاؤه من غير أن تنفصل عن بطنه وهو يدور بها في جهنم في حركة مستمرة – وهو مشهد في غاية الإثارة – بصورة حمار يدور في حركة دائبة حول الرحى ، مما جعل أهل النار – مع ما هم فيه من غم وكرب – يسألونه : يا فلان ما شأنك ، ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟!. ولا مناص يومئذ من صدق الجواب ونطق الصواب ، فيجيب : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه و أنهاكم عن المنكر وآتيه . فالقصة لم تنقل بطريقة إخبارية تمدنا بخبر أهل النار فحسب ، ولكنها تنقل بطريقة تصويرية . يتجلى فيها الفن القصصي في أروع مظاهره ، وأسمى منازله ، إذ تنقل المشاهد بالطريقة التي يتم فيها تصوير الحدث ، الذي يعطي القارئ أو المستمع إضافة إلى التزود بالمعلومات الإحساس بالتجربة الكلية للحدث ، تلك التجربة التي تمنح الشعور بالانفعال والتأثر ، وتحقق له المتعة الذهنية .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٨ صـ ١١٨

وفي قصة " الرجال في الجنة أكثر أم النساء " نرى رسول الله ﷺ ، يصور أهل الجنة . حالة دخولهم إياها .وهم يتوافدون زرافات وطوائف ، بصورة واضحة المعالم بارزة المشاهد ، فيصور أول جماعة تدخل الجنة ، بصورة القمر ليلة البدر ، من حيث التمام والكمال والجلال والجمال ، ويصور الجماعة الثانية بصورة أضوأ كوكب درّيّ في السماء من جهة العلو ، وحسن الصورة ،وقوة الإضاءة .

كذلك رسمت القصة صورة جميلة لنساء أهل الجنة وأظهرتهن فى لوحة فنية رائعة ، فهن كالبلور شفافية ، ونعومة ملمس ، وشدة إضاءة وأكثر لمعانا وبريقا ، بحيث يرى مخ ساق الواحدة منهن من وراء اللحم الذى يكسو عظم الساق وذلك قوله ـ ﷺ ـ " إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوأ كوكب درّيّ فى السماء لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقها من وراء اللحم " (٢) هذه الصورة الجميلة ، والتى تموج بالحركة ، رسمتها القصة بكلمات قليلة ، ومع قلة كلماتها إلا أنها عبرت أدق ما يكون التعبير عن هذه الصورة التى

---

(٢) صحيح مسلم جـ ١٧ صـ ١٧١

جاءت فى غاية الروعة التصويرية والجمال الفنى . ولما للتشبيه أثر بارز فى رسم الصورة الفنية ، بسبب ما يقوم به من مهمة التوضيح والتقريب بين المشبه والمشبه به ، نتيجة للعلاقة التى تربط بينهما ، ذلك الربط الذى يعطى الصورة نوعا من التحديد والوضوح لدى المتلقي للقصة . أقول لما للتشبيه من الأثر العظيم فى رسم الصورة العبرة للأسباب التى ذكرت ، فإن القصة النبوية قد استخدمت التشبيه كريشة فنان لرسم تلك الصورة . ومن ذلك على سبيل المثال ـ تصويره ـ ﷺ ـ الموت يوم القيامة بكبش أملح [١] فيقول يجاء الموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، ويقولون نعم ، هذا الموت ويقال يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت فيؤمر به فيذبح ، ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت " . [٢] هذا بالإضافة إلى ما تعطيه لفظتى " يشرئبون وينظرون " من

---

(١) الأملح = الأبيض الخالص وقال الكسائى هو الذى فيه بياض وسواد ولكن بياضه أكثر ، أنظر لسان العرب لابن منظور

(٢) صحيح مسلم جـ ١٧ صـ ١٨٥

صورة لحركة أهل الجنة وأهل النـــار ، وهـــم يرفعـــون وجوهـــهم وأعناقهم إلى أعلـــى فـــى تطلـــع واستشـــراق ، وتحديـــد زمـــن وقوف الموت بيوم القيامة الـــذى يمـــوج بالحركـــة والاضطـــراب وشدة الزحام ، يوم تكـــون قلـــوب النـــاس واجفـــة ، وأبصـــارهم خاشعة " وجوه يومئـــذ نـــاضرة ، إلـــى ربـــها نـــاظرة ، وجـــوه يومئذ بأسرة ، تظن أن يفعـــل بـــها فـــاقرة " [٣] وكذلـــك تحديـــد مكان وقوف الموت فى مكان يفصل بيـــن الجنـــة حيـــث الأكـــواب موضوعـــة ، والنمـــارق مصـــــفوفة [٤] والزرابـــى [٥] مبثوثة [٦] وبيـــن النـــار حيـــث الجحيـــم مســـتعمرة ، وألســـنة النيران ملتهبة . فوق ما يحمله التعبـــير جملـــة مـــن تشـــخيص حى لكيفية الحركة وطبيعتها ، ممـــا أضفـــى علـــى الصـــــورة الكلية جوا زاخرا بالحركة والحيـــاة هـــذا .وإن القصـــص النبـــوى لزاخـــر بالتشـــبيهات الرائعـــة التـــى تضفـــى علـــى الصـــــورة

---

(١) سورة القيامة الآيات من ٢٢ــ ٢٥ والناظرة = المشرقة الجميلة ، والوجوه الباسرة = القبيحة المنظر تظن أن يفعل بها فاقرة = أى تخشى أن تصيبها داهية عظيمة تكسر فقار الظهر أى عظامه

(٣) النمارق = جمع نمرقة وهى الوسادة [المخدة] لسان العرب

(٣) الزرابى = البسط الفاخرة مفردها زربية بفتح الزاى وسكون الراء وكسر الباء وتشديد الياء

(٦) مبثوثة = مفروشة فى غرف الجنة وقد جمعت سورة الغاشية هذه الكلمات الثلاثة

القصصية فنيه وروعـــة وجمـــالاً ونكتفـــى بمـــا أوردنـــاه حـــذر الإطالة والتكرار والله ولى التوفيـــق .

دكتور/محمود جمعة أمين

أستاذ الأدب والنقد المساعد بجامعة الأزهر

ثبت المراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : المراجع مرتبة حسب الترتيب الأبجدى .

١ــ أصحاب الأخدود ــ د/ رفاعى سرور . طبع دار التراث بالقاهرة " بدون تاريخ "

٢ــ أيام العرب فى الجاهلية ــ جاد المولى وآخرين . طبع الحلبى بالقاهرة ١٩٥٨ م .

٣ــ البنية القصصية فى حديث عيسى بن هشام ــ محمد رشيد ثابت . شركة فنون النشر بتونس ١٩٧٥ م .

٤ــ تاريخ الأدب العربى . العصر الجاهلى ــ د/ شوقى ضيف طبع دار المعارف ١٩٨١ م الطبعة الخامسة .

٥ــ تاريــخ الأدب العربى / كارل بروكلمان . دار المعارف ١٩٦٢ الطبعة الثالثة .

٦ــ تاريخ أدب اللغة العربية / جورجى زيدان دار الهلال ١٩٥٧ م

٧ــ التصوير الفنى فى القرآن الكـ ـم/ سيد قطب دار المعارف بالقاهرة بدون تاريخ .

٨ ــ تهذيب اللغة / الأزهرى . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م.

٩ــ الحديث النبوى من الوجهة البلاغية / عز الدين على السيد . المطبعة

من بلاغة القرآن الكريم

تنزيل الحكيم منازله

بقلم الأستاذ الدكتور

محمد إبراهيم البنا

عميد كلية الدراسات الإسلامية

والعربية بنات بسوهاج

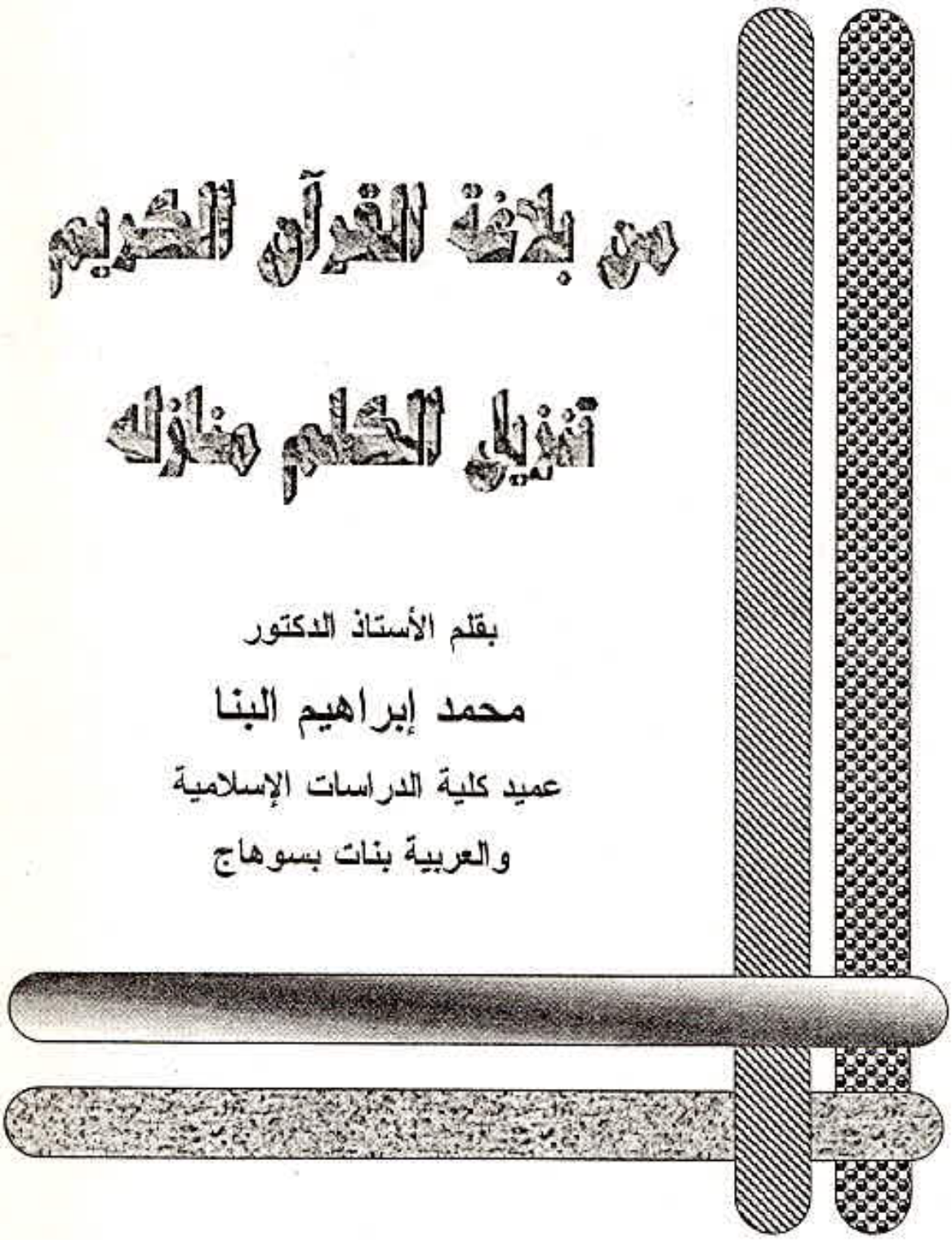

بسم الله الرحمن الرحيم

من بلاغة القرآن الكريم : تنزيل الكلم منازله

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعلمين ، بكتاب عربى مبين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وبعد ،، فإن وجوه الإعجاز فى القرآن متعددة ، يجد فيها الباحث فى شتى مناحى المعرفة ما يأخذ النظر ، ولا يزال المتأمل فيه يكتشف من وجوه التفرد فى المقاصد والمعاني والأساليب والمفردات ما يجعله نسيج وحده ، ويحيل أن يكون فى طاقة البشر ، وبحسبك أن تنظر مواد القرآن الكريم فسوف ترى أنه اجتمع فيه منها ما يمتنع أن يتهيأ لبشر ، فأنت تستطيع دون عناء أن تحصى مفردات أديب ما ، شاعراً كان أم كاتباً ، أما مواد القرآن الكريم وأدواته فقد تجاوزت الحدود

الإنسانية ، ويمكن أن يقال ذلك فى تنوع أساليب القرآن تنوعا فريدا باختلاف سياقه ومقامه .

ونحن الآن مدعوون جميعا لتجديد موقفنا من كتاب الله العزيز وأعنى بذلك دارسى بيان القرآن الكريم ونظمه، فإن علينا أن نطرق هذا الباب ، وأن نحتفل أيما احتفال بما مهده لنا السابقون من مقالات واجتهادات فى التعرف على نظم القرآن الكريم وأسلوبه ومنهجه فى اختيار مفرداته ، ومراعاة نسق الكلام وترتيبه ، وأن يكون ذلك دأبنا الذى لا ينقطع ، ومنهجنا الذى إذا اجتمعنا نجتمع عليه ، وإذا افترقنا نفترق عليه ، وألا نقنع بما انتهى إلينا من زاد الأوائل فى القرن الرابع ، ثم ما كان من محاولات بعد ذلك لبعض الأعلام فى القرون التى تلته ، وذلك حتى لا نبتعد عن ذوق العربية الذى خاطبه كتاب الله ، فنقف بذلك على ما وقفوا ، ونجدد القرآن فى قلوبنا ، فليس للتبرك وحده يقرأ القرآن ، ولكن أيضا لتدبر معانيه ، والتعرف على مقاصده ومراميه ، وبذلك يكون الدرس القرآنى أوقع فى القلوب ، وأبلغ فى النفوس ، ويكون المضمار الذى تزكو به الدراسة الأدبية والنقدية ، فمن العجيب أن تكون الأصناف الأدبية هى موضع اهتمام النقاد الأول الآن ، ويشغل بها الدارسون أيما اشتغال ، ولا يكون لدارسى القرآن الكريم

وحافظى كتابه المشاركة المطلوبة ، والجهد المكافئ لكتاب الله العزيز .

ولقد كان مما أفاء الله على أن أتيح لى قراءة آثار السهيلى ومصنفاته ، وكان هذا الأستاذ الأندلسى مشغولا فى كتبه كلها بالحديث عن إعجاز القرآن الكريم ، وبلاغة النبوة ، ومنبها على ما تميز به النظم القرآنى ، فى مفرداته ونظمه ، كثير الحديث عن سياقه ومقتضياته ، وأن اللفظة القرآنية ، قد أحكم اختيارها كما أحكم وضعها ، ثم كان يقول دائما: " وهذا ما لا نجده فى كلام الناس " ، يعنى أنهم قد يترخصون فيضعون الألفاظ بعضها موضع بعض ، ويعدونها مترادفات ، على حين أن بينها فى النظم القرآنى فرقانا عظيما ، ومنازل يجب أن تطلب . وكما تحدث عن اختيار الكلمة القرآنية تحدث كذلك عن وضعها الذى وضعت فيه ، فرأينا له كلاما جديدا فى التقديم والتأخير ، فكثيرا ما وازن بين لفظة قدمت فى آية وأخرت فى آية أخرى ، واضعا أيدينا على أثر المقام أو السياق فى استقرار الكلمة من الآية . وقد سبقه إلى ذلك الإمام عبد القاهر الجرجانى حيث تحدث عن اللفظة المتمكنة المقبولة التى حسن فيها الاتفاق بينها وبين ما سبقها أو لحقها فى جملتها ، وعن اللفظة الأخرى القلقة النابية التى لم تلتئم من حيث المعنى مع

صاحبتها . فبنى السهيلى على كلام عبد القاهر ، وشـــارك – كما سبق فى مدارسة النص القرآنى ، وكان بذلك حفياً ، مؤثراً ما قدمه من اجتهادات على ما يحفل به الناس فى دنياهم .

تأثرت جداً بمقالات الســـهيلى ،وبـــدا ذلـــك فـــى تلـــك المحاولات التى أقدم نماذج منها الآن عن النظم القرآنى :

الوالد والأب :

من الكلمات التى يضعـــها الأدباء والشـــعراء موضـــع بعض ، يظنون أنها من المترادف و كلمتا الوالد والأب ، علـــى نحو ما صنع حسان بن ثابت فى قوله :

فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

فلا تحس فى بيت حسّان بشيء من التمايز بين كلمتـــى الأب والوالد ، لكنك إذا راجعت القرآن الكريم وجدت الأمر غـير هذا ، فلكلمة الأب مقامها ، وكذلك كلمة الوالـــد . ولقـــد نبـــه السهيلى على مـــا بينهمـــا من فرق عند تفســـير قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، و لأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان لـــه ولـــد ،

فإن لم يكن له ولد وورثـــه أبـــواه فلأمـــه الثلـــث ﴾ ، قـــال السهيلى:" ذكرهما -يعنى الأب والأم - بلفظ الأبوة دون لفـــظ الولادة كما قال : ﴿ وبالوالدين إحســـاناً ﴾ ، لأن هـــذه الآيـــة معرضها ومقصودها غير ذلك ، ولفظ الوالدين أوفـــى وأجلـــب للرحمة ، وأشكل بالوضع الذى يراد به الرفق بهما ، لأن لفـــظ الولادة يشعر بحال المولود ، وبرحمتهما له إذ ذاك ، ألا تـــراه يقول فى آية الوالدين ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ﴾ ، ولفظ الأبوين أوقر ، وإن كان لفظ الآخر -يعنى الوالديـــن - أرق " .

ومأخذ الرقة فى لفظ الوالدين -كما رأينا - أنه يدل على الولادة ، لأنها مدعاة للرحمة ، ولذلك حين وصـــى الله تعـــالى بالوالدين وقعت الوصية بلفظ الولادة وحده دون لفظ الأبويـــن ، يقول تعالى: ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبـــدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ﴾ وقال :﴿ كتب عليكـــم إذا حضـــر أحدكـــم الموت إن ترك خيـــراً الوصية للوالدين والأقربين بـــالمعروف ﴾ وقال :﴿ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ﴾ . وهكـــذا حيث وصّى الله ترى الوصية بلفظ الولادة دون لفظ الأبوة .

ومما استدعاه المقام أيضاً أن يذكر فيه لفظ الوالدين ، قوله تعالى :﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ﴾ فعبر بالوالد والولد أو المولود لما بينهما من التراحم فى الدنيا ، وعلى الرغم من ذلك ترى كلاً منهما لا يغنى أحدهما عن الآخر شيئاً فى الآخرة ، فكان النص على لفظ الولادة أدل على عظم اليوم الآخر مما لو عبر بلفظ البنوة والأبوة .

على أن الله تعالى قال فى آية :﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ﴾ فعبر هنا بالأبوة والأمومة ، وفى الآية السابقة بالوالد والولادة ، لأن لكل من الآيتين سياقاً ومقاماً ، فسياق قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ﴾ هذا السياق يعنى أنه لا شفاعة فى هذا اليوم ولما كان منشأ الشفاعة الرحمة ، كان لفظ الولادة أنسب بهذه الآية . فأما الآية الأخرى فمقامها مكان القرار ، لأن كل امرئ مشغول بما هو مدفوع إليه ، فلا مجال حينئذ للحديث عن الرحمة ، وناسب التعبير بالأب والأم اللذين لا يؤخذ منهما أكثر من الدلالة على الانتساب والانتماء .

وقارن دعاء إبراهيم عليه السلام فى سورة الشعراء وهو قوله تعالى : ﴿واغفر لأبى إنه كان من الضالين ﴾ بدعائه فى سورة إبراهيم : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ فدعا فى سورة الشعراء لأبيه ، وفى سورة إبراهيم لوالديه ، ومن عرف ذوق كلمة الوالد يجد أنها تكون نابية لو قيل : واغفر لوالدى إنه كان من الضالين ؛ لأن كلمة الوالد بما تعطيه من رحمة القلب والرقة على الوالد لا يناسبها أن تقرن بوصفه بالضلال ، ومن هنا عدل عن الوالد إلى الأب . فأما آية سورة إبراهيم فلم تقر بذلك ، وليس فيها ما يقلق كلمة الوالد ، فاستقرت فى موضعها وحيث المقام مقام طلب الرحمة .

لقد نبهنا النقاد الأوائل إلى أن لكل مقام مقالاً ، وأن السياق أيضا ينبغى أن يكون مرعياً ، ولقد رأيت أن المقام قد يكون واحداً ثم تجد السياق يطلب من الكلم مالا يطلبه سياق آخر . وإن عليك أن تنظر فى آية الأحقاف : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا أشدّه بلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن اشكر نعمتك

التى أنعمت على وعلى والـــدى وأن أعمـــل صالحـــا ترضـــاه وأصلح لى فى ذريتـــى ﴾.

فتجد أن لفظ الوالدين يستدعيه الحديـــث عـــن الحمـــل والرضاعة والفصال ، ثـــم إن مـــا فـــى الولـــد مـــن صـــلاح ونعمة قد سرى إليه من والديه ســـريان المـــاء فـــى الفـــروع والأغصان ، والذى ينبه على هذا المعنـــى قولـــه تعـــالى : ﴿ وأصلح لى فى ذريتى ﴾. فـــهو يدعـــو لذريتـــه كمـــا كـــان والداه يدعوان له ، ومن هنا كـــان لفـــظ الوالديـــن يقتضيـــه السياق وذكر النعمة كما اقتضاه مقام الشـــكر ، ولاحـــظ هـــذا فى دعاء ســـليمان عليـــه الســـلام فـــى آيـــة النمـــل : ﴿ رب أوزعنـــى أن أشـــكر نعمتـــك التـــى أنعمـــت علـــى وعلـــى والدى ﴾ . وتأمل معى قوله تعـــالى : (حملتـــه أمـــه) فـــى آيتى لقمان والأحقاف ، فسوف تـــرى أن الســـياق يـــأبى أن يقال : حملتـــه والدتـــه ، وإن كـــان المقـــام مقالـــه الوصيـــة فالحديث هنا عن الحمل والوضع ، فكان ذكـــر الأم هنـــا ممـــا ينفى التكرار لو عُبِّر بلفـــظ الـــولادة ، ومنشـــأ التكـــرار مـــن ذكر الوضع بعدُ ، ثم هل تجد الســـياق يســـمح بـــأن تقـــول : حملتـــه والدتـــه ، والمقصـــود تصـــور الحمـــل وحـــده ،

والوضع وحده ، فكان ذكر الوالدة لو قيل - مع ما فيه من التكرار الذى بيناه - ما يخل بالتصور المقصود .

تلك نماذج من مقامات وسياق لفظ الوالدين فى القرآن الكريم ، فهما يذكران فى مقام الوصية بهما ، وتعظيم أمرهما ، وشكر الله تعالى - على ما أنعم به على الوالدين ، لأن ما فى الوالد من صلاح هو من صلاح والديه . فأما ذكر الأبوين فى القرآن الكريم فسياقه غير السياق المتقدم ، لا يعد مجرد النسبة ، يقول تعالى فى سورة النساء : ﴿ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾ ، ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس﴾ ، وقال فى سورة الكهف : ﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين﴾ . وقال فى سورة يوسف : ﴿ ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق ﴾ . وقال فى سورة الأعراف : ﴿يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ . وهكذا الأب مفرداً كان أو مجموعاً إنما يذكر لبيان النسبة ، نحو قوله تعالى :﴿ قلوا يأيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً ﴾ ، ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ﴾ ، ﴿قالوا : بل نتبع ما ألفينا علية آباءنا ﴾ . فهل تجد فى

سياقات الآية المتقدمة ما يقتضى ذكر الوالدين ، من الحديث عن الرحمة أو الوصية ؟ فتبارك الله رب العالمين ، وإنه فى كل آية من آيات كتابه من الدلائل ما يستدعى إعادة النظر والتأمل والتدبر ، إنه كتاب الله العزيز الذى أحكمت آياته ﴿ وفصلت من لدن حكيم خبير ﴾ .

ولتتأمل معى نهج القرآن الكريم فى أسلوب ندائه مع لفظ الأب ، فتجده متفردا بأسلوب النداء دون الوالد ، نحو قوله تعالى : ﴿ قالوا يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ﴾ ، ﴿ يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ ، ﴿ يا أبانا منع منا الكيل ﴾ ، ﴿ يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا ﴾ ، ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ﴾ . ولم يقع لفظ الوالد هذا الموقع فى النداء ، وذلك راجع إلى أن لفظ الأب أوقر من لفظ الوالد ، وما فيه من الوقار هو الذى ميزه بأن يكون فى النداء لأن من توقير الرجل أن تشعره بأبوته لك ، وانتمائك إليه ، ومن هنا قال العربى :

أكنيه حين أناديه لأكرمه

ولا ألقبه و السوأة اللقب.

جاءت فى غاية الروعة التصويرية والجمال الفنى . ولما للتشبيه أثر بارز فى رسم الصورة الفنية ، بسبب ما يقوم به من مهمة التوضيح والتقريب بين المشبه والمشبه به ، نتيجة للعلاقة التى تربط بينهما ، ذلك الربط الذى يعطى الصورة نوعا من التحديد والوضوح لدى المتلقي للقصة . أقول لما للتشبيه من الأثر العظيم فى رسم الصورة العبرة للأسباب التى ذكرت ، فإن القصة النبوية قد استخدمت التشبيه كريشة فنان لرسم تلك الصورة . ومن ذلك على سبيل المثال ـ تصويره ـ ﷺ ـ الموت يوم القيامة بكبش أملح [١] فيقول يجاء الموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، ويقولون نعم ، هذا الموت ويقال يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت فيؤمر به فيذبح ، ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت " . [٢] هذا بالإضافة إلى ما تعطيه لفظتى " يشرئبون وينظرون " من

---

(١) الأملح = الأبيض الخالص وقال الكسائى هو الذى فيه بياض وسواد ولكن بياضه أكثر ، أنظر لسان العرب لابن منظور

(٢) صحيح مسلم جـ ١٧ صـ ١٨٥

صورة لحركة أهل الجنة وأهل النـــار ، وهـــم يرفعـــون وجوهـــهم وأعناقهم إلى أعلـــى فـــى تطلـــع واستشـــراق ، وتحديـــد زمـــن وقوف الموت بيوم القيامة الـــذى يمـــوج بالحركـــة والاضطـــراب وشدة الزحام ، يوم تكـــون قلـــوب النـــاس واجفـــة ، وأبصـــارهم خاشعة " وجوه يومئـــذ نـــاضرة ، إلـــى ربـــها نـــاظرة ، وجـــوه يومئذ بأسرة ، تظن أن يفعـــل بـــها فـــاقرة " [٣] وكذلـــك تحديـــد مكان وقوف الموت فى مكان يفصل بيـــن الجنـــة حيـــث الأكـــواب موضوعـــة ، والنمـــارق مصـــــفوفة [٤] والزرابـــى [٥] مبثوثة [٦] وبيـــن النـــار حيـــث الجحيـــم مســـتعمرة ، وألســـنة النيران ملتهبة . فوق ما يحمله التعبـــير جملـــة مـــن تشـــخيص حى لكيفية الحركة وطبيعتها ، ممـــا أضفـــى علـــى الصـــــورة الكلية جوا زاخرا بالحركة والحيـــاة هـــذا .وإن القصـــص النبـــوى لزاخـــر بالتشـــبيهات الرائعـــة التـــى تضفـــى علـــى الصـــــورة

---

(١) سورة القيامة الآيات من ٢٢ــ ٢٥ والناظرة = المشرقة الجميلة ، والوجوه الباسرة = القبيحة المنظر تظن أن يفعل بها فاقرة = أى تخشى أن تصيبها داهية عظيمة تكسر فقار الظهر أى عظامه

(٣) النمارق = جمع نمرقة وهى الوسادة [المخدة] لسان العرب

(٣) الزرابى = البسط الفاخرة مفردها زربية بفتح الزاى وسكون الراء وكسر الباء وتشديد الياء

(٦) مبثوثة = مفروشة فى غرف الجنة وقد جمعت سورة الغاشية هذه الكلمات الثلاثة

القصصية فنيه وروعـــة وجمـــالاً ونكتفـــى بمـــا أوردنـــاه حـــذر الإطالة والتكرار والله ولى التوفيـــق .

دكتور/محمود جمعة أمين

أستاذ الأدب والنقد المساعد بجامعة الأزهر

ثبت المراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : المراجع مرتبة حسب الترتيب الأبجدى .

١ــ أصحاب الأخدود ــ د/ رفاعى سرور . طبع دار التراث بالقاهرة " بدون تاريخ "

٢ــ أيام العرب فى الجاهلية ــ جاد المولى وآخرين . طبع الحلبى بالقاهرة ١٩٥٨ م .

٣ــ البنية القصصية فى حديث عيسى بن هشام ــ محمد رشيد ثابت . شركة فنون النشر بتونس ١٩٧٥ م .

٤ــ تاريخ الأدب العربى . العصر الجاهلى ــ د/ شوقى ضيف طبع دار المعارف ١٩٨١ م الطبعة الخامسة .

٥ــ تاريــخ الأدب العربى / كارل بروكلمان . دار المعارف ١٩٦٢ الطبعة الثالثة .

٦ــ تاريخ أدب اللغة العربية / جورجى زيدان دار الهلال ١٩٥٧ م

٧ــ التصوير الفنى فى القرآن الكـ ـم/ سيد قطب دار المعارف بالقاهرة بدون تاريخ .

٨ ــ تهذيب اللغة / الأزهرى . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م.

٩ــ الحديث النبوى من الوجهة البلاغية / عز الدين على السيد . المطبعة